الثلاث ورقات

قصص

رضا الطويل

الثلاث ورقات

سنابل للكتاب
٥ شارع صبرى أبو علم
باب اللوق - القاهرة
الإدارة :
(+202) 23 92 65 93
المكتبة :
(+202) 23 93 56 56
e-mail
sanabooks@maktoob.com
web:
www.sanabil.net

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
العروبة للطباعة والنشر والتوزيع
(تحت التأسيس)

الثلاث ورقات
قصص

المؤلف:
رضا الطويل

الطبعة الأولى : 2008

رقم الإيداع:
2008/6266
الترقيم الدولى:
977-5130-395

الغلاف:
عصام الغنام

التدقيق:
الحسينى عمران

إليهم :

أحمد مختار حراز

محمد زكى الرافعى

حسن شوقى الجميل

محمد فؤاد شبانة

رفاق السلاح الذين رحلوا ولم يتركونى.

وجـه المحـارب

سطع وجوده فى فراغ الباب، عندما فتحه الساعى الجافل، كان قد أعلننى بقدومه متوجسًا، توقع أن أرفض مقابلته: «أخيرًا وجدتك» يصيح بسعادة، أصبح مبتهجًا: «كامل»، أستدير من خلف مكتبى أتلقاه معانقا، لائذًا بصدرى احتضننى، مطاردًا من وحوش غامضة رهيبة: «أكثر من عام وأنا لا أكف عن البحث عنك»، حين تلاقى وجهانا تذوقت ملوحة الجلد المحترق، طعم الملوحة نفسها التى لم تفارق فمى، منذ ذلك اليوم البعيد.

تفحصت الوجه، اندملت الجروح خلال السنوات المضنية العديدة، التى مرت على ذلك اليوم الموغل فى القدم، هالتنى بشاعة الحروق، التهمت النيران الأجزاء اللينة من المنخارين، لم

تسلم من جشعها غير الأرنبة الغضروفية، معلقة فى الفراغ، تعتلى فتحتين عاريتين تقريبًا من غطاء اللحم، يملؤهما المخاط اللزج، بقوامه السميك داكن اللون، نهشت النار اللحم الهش للشفتين نهشًا عشوائيًا، أجهزت بجبروت على النصف الأيمن من الفم، تركته فدغًا مجوفًا غير مستوى الحواف، يغمره دائمًا اللعاب ويسيل منه، يظهر خلال غوره النابان العلوى والسفلى وجانب من الأسنان الصفراء معلقة فى اللثة الداكنة، ينحرف الفم بشدة بتأثير الجلد الملسوع اللامع للخد الأيمن، الخد الملسوع مشدود من الوجنة المهترأة، التى تجر محيط العين جرًا لأسفل، فتتسع الحدقة حول المقلة القلقة فى الفراغ غير المحبوك، جاحظة تحت جفن ملتهب، متآكل يتعرج منزوع الأهداب، الجلد المحروق يرسم قوس الحاجب، تتناثر على قوس الحرق عدة شعيرات غليظة صلبة، على انخفاض الخد والوجنة ترتفع كتل اللحم المسود غير المنتظم، تجعد الصدغ، تشكل تلالاً لحمية بنية اللون، تحيط بكآبة الشق الأيمن من الوجه، تنزع الشعر من فروة الرأس، وتنسحب صاعدة إلى الجبهة، لتنحدر بالتدريج، تاركة باقى مسطح الجبين لطبيعته فى جانبه الأيسر، الذى لم يسلم من التشويه فى أجزاء منه، كما لو كان قد أصيب بالبقع البيضاء للبهاق، إلا أنه احتفظ بدلائل واضحة من وسامة قديمة، تشهد بما كان عليه الوجه من ملاحة وبهاء.

استيقظت عواطف الزمالة القديمة، تأججت حرارتها: «لك

وحشة يا كامل»، فاضت مشاعرى الحبيسة، التى أصرت على البقاء، عفية كما هى، أرنو بحب إلى وجهه.

الساعى الذى دفع الباب حاملاً زجاجة الكولا التى طلبتها لضيفى، يتقدم متململاً مرتبكًا، أدهشته حرارة اللقاء، يضع ما يحمله، كابحًا مشاعره حتى لا يفصح عن النفور المعتمل بصدره، يمنع عينيه غصبًا من أن تستدير وتسقط على وجه كامل، محاذرًا أن تلتقى بعينيه، ولحرصه البالغ على إظهار التبجيل فضح أحاسيس التقزز المتوهجة، فازداد حرجًا وارتباكًا، توتر الفراغ الممتد بين الوجهين البائسين، تلبد الجو بالحرج، شحنته موجات الانقباض، نظر كامل باتجاهى، مانعًا عينيه من أن تتحول عن وجهى، يستغيث صامتًا لإنقاذه، يستنجد باستخذاء، يستميت لإخفاء وجهه بعيدًا عن أعين الساعى المحرجة، حدجت الساعى مؤنبًا، انصرف متعثرًا مكفهر الوجه لائمًا نفسه، ظل كامل مطرقًا، قانطًا نظر نحوى، سمعت صوته المختنق ملوثًا بأنين الحزن:

– هل رأيت؟ لا أحد يطيق بشاعة وجهى.

– من يتأنى، ويتملى، يدرك أن التشويه حدث كبير طارئ، ليس صفة أصيلة، ولو سأل سيعرف، ويقدِّر.

– حتى لو عرف، سيشفق ولن يقدِّر، أكره أن أكون موضع شفقة لإنسان.

– من يعرف سيقدرك حق قدرك.

– كان هذا فى الزمن الذى ولَّى، تغيرت الدنيا، لم تعد دنيانا، لم يعد أحد يسأل، لا أحد يحب أن يعرف، لا أحد يريد حتى أن يتذكر.

كنت أعرف أنه محق، وأعانى مثله ألوانًا شتى من النكران، قلت بصدق:

– «تقديرى لك بلا حدود».

– أنت الوحيد الباقى لى، من تبقى لى من الدنيا، لهذا أتيت إليك، بحثت عنك طويلا، مر عام وأكثر وأنا أبحث، حتى اهتديت، أنا فى مسيس الحاجة لأشعر بأن هناك إنسانًا واحدًا مازال يتقبلنى، يتقبل وجودى البشع، يستطيع أن ينظر لى بحب دون أن يشعر بالتقزز والنفور.

– ومريانا؟...

– تطلع نحوى بأسى مغمومًا قال: ماريانا؟ ماريانا ذهبت هى الأخرى.

بهت: «مستحيل»، مؤكدًا هز رأسه بأسف: «تركتنى وذهبت».

رأيت ماريانا مرة وحيدة، يوم وجدنى كامل ضالاً أفتش عنه، كدت أستدير منصرفًا، يائسًا من العثور عليه، مغادرًا عنبر الحروق بمستشفى المعادى العسكرى، أحسب فى نفسى مغبة فشلى، انتهت مهلة الأيام الثلاثة، التى حددها القائد بحزم، وهو يكلفنى بالبحث عن الرقيب كامل، مشددًا على ضرورة العثور عليه، أينما هو، لم تعد هناك مستشفيات عسكرية أخرى أمامى،

ولم يعد وقت متاح أيضًا، صباح اليوم الأول هبطت من الجبهة، بعد إعلان وقف إطلاق النيران، احتضنت الشوارع بزتي العسكرية، رفرف النور حولى، تمسح العيون المتوهجة بالفرحة جبهتى، تربت النظرات ظهرى، تتعقب خطواتى، ترقص حولى بزهوٍ، مستشفى الحلمية العسكرى الذى بدأت به، لا لشىء إلا لأنه القريب من بيتى - يتلألأ بالأنوار، الأبهاء معطرة بالأضواء، العنابر سرادقات أفراح، باقات الزهور تزين الطرقات وتلتف حول الأسرَّة، الضحكات السعيدة تحلق فى الأجواء، مندوبو الشركات والمؤسسات يجوبون بالهدايا، ملابس، عطور، أجهزة ترانزيستور، مفروشات، أدوات منزلية، كل ما يخطر على البال، هدايا للأبطال الممدَّدين على الأسرة الدامية، نجوى إبراهيم ورشا مدينة غزالتان تنسابان برشاقة وحبور، توزعان البسمات الودودة، تشعلان عنفوان الحياة بالقلوب الأسيرة بالضمادات البيضاء، نافستهما فى التحليق حول الأسرَّة، أبحث عن الرقيب كامل، من فراش إلى فراش، من عنبر إلى عنبر، مالت الشمس للمغيب، انتهى يومى الأول، دون جدوى، على أمل العثور على الرقيب كامل، أشرق صباح اليوم الثانى، مستشفى كوبرى القبة العسكرى، أجواء الأفراح نفسها، تركنى النهار وهبط الليل الساحر، على أمل العثور عليه، انتهت المهلة المحددة، ثالث يوم كان قسم الحروق آخر الأقسام، وكان العنبر آخر عنابر القسم، تمنيت بينى وبين نفسى أن أعثر على الرقيب كامل، قبل أن

أضطر للخطو ولو خطوة واحدة داخل قسم الحروق، كل شيء محتمل عدا رؤية بقايا النيران الجائعة، تصفحت الوجوه مرغمًا، أغالب الرعب، مسحت الأسرَّة المتراصة بعيون غائبة، كانت الشمس قد غادرت وسط السماء، واليأس يتسلل وينتشر بأعماقي، لمجرد أن أثبت لنفسي أنني قمت بواجبي أفتش عنه، متعجلاً الانصراف، كان العنبر ككل العنابر التي زرتها، يتلاشي الأنين في مشاعر الزهو، تتبدد الآهات في جو المرح، رقرقة الضحكات الهنية تعلو، الحبور يضيء وجوه المصابين الراقدين بخيلاء على الأسرَّة، وجوه الزائرين منتشية، جمع هائل من الزوار الفخورين، كثير من الجرحي، وسط جلبة السرور ندَّ إلى سمعي صوت خافت ينادي باسمي، توقفت، أعيد النظر، أتصفح الوجوه من جديد، على فراش في الركن البعيد من العنبر، رأيت من يلوح بيده، تساعده في النداء الجميلة التي تقف بجواره، يعرفني قطعًا، لم أتعرف عليه وهو يشدني بذراعه السليمة، مستندًا بظهره إلى عارض السرير، استجبت لرغبته عندما شدني إليه ليقبل وجنتي، رفعت رأسي وفمي مشبعًا بالإفراز الصمغي الحامز، افترش طعم الملوحة حواسي، عندها تبينت شخص «كامل»، عثرت عليه في الآثار القليلة المتبقية من بهاء وجهه القديم.

«كامل»، «كنت أبحث عنك»، انحنيت مرة ثانية أقبل وجنته اليسرى السليمة بحب «كدت أيأس من العثور عليك»، كانت

بجواره تتمايل منتشية، عيناها فراشتان تحلقان بحب حول وجهه المأكول، قال: «ماريانا زوجتى»، رقصت وهى تصافحنى، ضحكاتها صافية صفاء اخضرار عينيها، تتوثب الكلمات كالقبلات فوق فمها البديع، قدها الرشيق طروب يميس بدلال فى فستانها القصير، غمرتنى البهجة لحديثها، لم تتوقف عن الثرثرة، مستمتعًا أنصت إليها، «انظر... انظر..» أكل النار أنف حبيبى، تدفع بكفها الصغير ذقنى لأدير رأسى كى أرى، مالت تقبل وجنته السليمة بحب، أنظر متبسمًا، سعيدًا بها وهى تقبله، مستجيبًا لفضولى، تأملت سمانة رجليها المثيرة التى كشف عنها ذيل الفستان القصير، قلت لنفسى بديعة هى، «شفت نصف الأنف بالكامل»، تضحك بجزل، «عينى عليه»، «شفت، النار، النار أكلت الشفايف الحلوة»، تميل تقبله ويزدهر جمالها، يربت بحنو ظهرها، بيده السليمة، يضمها ضمًا خفيفًا لنصف صدره، تناسيا وجودى، ابتعدت عنه برشاقة دون أن تبتعد، «الخد اليمين محروق»، تتفرس فى عينى، أنت بالطبع تعرف لماذا جانبه الأيمن فقط هو الذى أصيب، أصل فتحة حكمدار الدبابة فى الشمال، أنت تعرف ذلك بالطبع، قفز فى خطفة عين، عندما انفجرت الدبابة، اشتعلت النار به، كل جسمه، كل ملابسه، خلعها بسرعة فى لحظة، تصور، لم يشعر بالنار التى تحرق وجهه، إلا بعد ذلك، يا حبيبى يا كامل، قبلته، جلست بجواره نصف جلسة، أصابعها تمسح جانب شعره، «أنت تعرف

بالتأكيد القصة»؟، مقاطعًا قلت: ولهذا جئت، كلنا فخورون بكامل، تصورى، كلفنى القائد نفسه بالعثور عليه، حكاية كامل يتغنى بها الضباط والجنود، الكبير والصغير، ملحمة بطولة، تصغى بإعجاب، وتميل بحب، ترشف ملوحة الإفراز الحامز بنشوة.

حدثت ماريانا مستمتعًا، مستندًا إلى عارض السرير يتابعنا كامل بسعادة، عيناه ثابتتان على ألق وجهها الجميل، وهى تصغى، أسهبت فى التفاصيل لأطيل الوقت الذى أقضيه معهما، أستغرب عدم تحفظى المعهود، قلت لماريانا: إن قائد الكتيبة رشحنى للمهمة التى لا يعرفها، زكانى لقائد الفرقة، كان يمنٌّ علىَّ بتزكيته لى، قال إننى الأفضل والأقدر على القيام بها، المهمة خطيرة، قلت لها إن كلامه أسعدنى، لولا أنه أضاف أن القائد ينتظرنى فى مكتبه، وعلىَّ تقديم نفسى فورًا لأتلقى أوامره، حدثتها عن القائد الكبير، عن شخصيته المهيبة، ضحكت وأنا أسر لها معترفاً لها كيف فشلت فى محاصرة رعدة الخوف التى اعترتنى، عن تهيبى مقابلته، قلت لها إننى سألت قائدى عن المهمة، حدثتها عن غيظى منه عندما أجابنى بأنه لا يعرف ليزيد خوفى، من القائد الكبير الذى لم يصرح بشىء، وهو لم يجرؤ على السؤال، ومن يجرؤ على السؤال؟، قائد الفرقة يثير فزعه تمامًا كما يفزعنى، حتى قادة الكتائب أمثاله يشعرون بالتهيب، وصفت لماريانا مسهبًا كيف ذهبت مكافحًا خوفى،

مثّلت لها كيف لملمت شتات لياقتى، ضحكاتها شجعتنى على التمثيل، قهقهتْ عندما اعترفتُ بأن محاولاتى لم تجدنى نفعًا عندما اقتحمتنى نظراته الفاحصة، تحت وقعها الصارم انهار جدار تماسكى، بحتُ لها بأننى لم أرَ غير عينيه المتصلبتين، وألوان الأعلام المحيطة به، كيف ارتعدت مفاصلى ذعرًا، وصوته الوقور يطرق سمعى، حكيت لماريانا أن نبراته الخشنة التفت حول عنقى المشرئب، فوق كتفى المشدودتين، وقد وقفت انتباه، بذقنى المرفوع المصوب للأمام، قهقهتْ بسعادة حين وقفت أمامها انتباه، ضحكت أكثر وأنا أقلد القائد المهيب، وهو يسألنى باقتضاب عن مكان إقامتى، تشبثت بقوة صوتى لأوحى بالثقة، أعرف أن الخوف منه يستفز غضبته، فيهدر كالرعد الضارى، جلجلت ضحكاتها وأنا أبوح لها بأننى كنت أشترى نفسى، انتبهت مزهوة وأنا أنقل كلمات القائد: «عليك أن تعثر على الرقيب كامل ذكرى، أينما كان، دوِّن التعليمات»، حثتنى على متابعة الحديث، ألاَّ أنسى التفاصيل، أدق التفاصيل، تابعتُ وأنا أبتلع ريقى، كما لو كنت فى حضرة القائد، ملأنى وجوده، بصعوبة حاولت أن أحافظ على انتباهى حتى لا أغرق فى طوفان التشتت المتزايد، المطارق الثقيلة تقرع سمعى، دوى الصوت يرجنى رجًا، أدون التعليمات ممتثلا، «ستجده بإحدى المستشفيات، أثناء بحثك عنه عليك إحصاء جنودنا المصابين، الذين تصادفهم، أنتظر تقريراً ببياناتهم، إصابتهم، مدة العلاج،

احتياجاتهم، شكاواهم»، أدون بيد ترتجف، ووجدان متيقظ، ما يلقنه بتؤدة، «اهتم بصفة خاصة بمطالب الرقيب كامل، سلمه هذه الرسالة» مددت يدى ، تسلمتها، لم تتحول عينى عن وجهه المهيب، «أمامك ثلاثة أيام، مدة كافية لإنجازها»، جزَّ على أسنانه مؤكدًا، أنهى تلقينه منذرًا، ضغط الحروف بحزم، «لا تذهب لمنزلك قبل الانتهاء من المهمة، أية أسئلة»؟، «انصراف»، تشهَّدت، أمام الباب، تحررت من شرنقة خوفى، لم أندهش لاهتمام القائد الكبير بالرقيب كامل، أعرف أنه يستحق، لا يوجد من لم يسمع بقصته، تداولت بيننا تداول الأساطير، لهج الجميع بالثناء على صموده الخارق، تنبهت للرسالة التى أقبض بحرص عليها، أثار فضولى الورق المقوى السميك الذى كتبت عليه، طويت طى الوثائق، فردتها، شهادة تقدير أكثر منها رسالة، فكرت، لماذا أعتبرها رسالة؟! لم تكن مطبوعة، بالمداد الأسود تألقت الحروف، مهرها القائد نفسه بتوقيعه.

استعادتنى ماريانا بتوثبها الحى، وهى تختطف الرسالة قبل أن يتناولها منى الرقيب كامل المغتبط، نشوانة تتراقص، تشدو بالكلمات «تعتز قوات درع مصر، وتعتز الفرقة بابنها البطل رقيب كامل ذكرى سيدراك»، «يا حبيبى يا كامل»، «وتفتخر بما أبداه من بطولة واستبسال، وتحيى فيه روح الرجولة والصمود، وما أقدم عليه من تضحية مقدرة شجاعته الخارقة وتفانيه فى القيام بالواجب»، مزهوة حلقت، تطوف راقصة حول الأسرَّة،

تعرض شهادتها على عيون المصابين والزائرين، انطلقت الزغاريد، صفقت الأيدى، على إيقاعها رقصت جزلى، تابعتها بحبور، وتابعها كامل بنشوة، غمر الحماس العنبر، عادت والجميع ينشد «الله أكبر»، قالت ماريانا إن هذا اليوم أسعد أيام حياتها، وإن الرسالة أجمل الهدايا التى تلقتها، وإنها ستحتفظ بها العمر كله، لم تعطها لكامل، وضعتها فى حقيبتها بحرص، بجواره جلست ملتصقة، قالت إنها لم تفرح هذه الفرحة من قبل، حتى فرحتها بزيارة نادية لطفى، وملاطفتها لها لم تشعرها بمثل هذه السعادة، قبلت وجنة كامل، تذوقت على مهل ملوحة الحروق، رشفتها.

كان كامل المهموم أمامى، يحاول أخذ رشفة من زجاجة المياه الغازية، شعرت من خلف مكتبى بما يعانيه من صعوبة، نظرت إليه بحب، وقد أمال رأسه بشدة حتى لا تندلق المياه من الفدغ، فكرت لا توجد وسيلة لمساعدته، منعت الشفقة من الصعود لعينى محافظًا على شعوره بالكبرياء، حين فشل فى محاولته، بللت المياه ذقنه، أمسك بالمنديل الورقى ولم يمسحها.

– كانت تحبك.

– ربما..

– أتذكرها جيدا.

– وتقدرك تقديرًا كبيرًا، تتحدث عنك دائمًا بإعجابٍ واحترام.

صمت مفكرًا، مترددًا قال: «فكرت أن بإمكانك إقناعها

بالعودة».

اغرورقت عيناه وهو يتابع باستخذاء «أحتاج إليها..».

لم يكن كامل الذى عرفته هو الذى يحدثنى، لم أستطع الرفض، كتبت عنوانه، وكتبت عنوانها، انصرف على وعد منى بالمحاولة.

أسرتنى العذراء الحزينة التى تزين الحائط، الأثاث القديم لامع، دلفت ماريانا مثيرة كما رأيتها أول مرة، صادفتنى أمام المنزل العمارة، صعدت السلالم معى محتفية، تحمل شنطة التسوق بيدها اليسرى، واليمنى تحمل كرتونة بيض، فحت هامسة تجيب على ابتسامتى الخاطفة، «البيض أبو صفارين» جرح بهجتى الوجوم، تخايل فشل المحاولة، شحب الأمل الضعيف، تأملتها بعد أن جلست، أنضجتها السنوات التى مرت على ذلك اليوم، تأججت أنوثة لاهبة، عطرت جو الغرفة المتواضع.

– جميلة كما رأيتك من زمن.

ضحكت تحصى السنين بين أساريرى، تابعت:

– زارنى كامل أمس.

ظلت عيناها التى تتفحصنى باسمة: العاهة غيرته، أنت كما رأيتك يومها، لم تتأثر بالسنين.

قلت: تقصدين الإصابة؟

تلونت عيناها بالحيرة، تستكنى ما أقصد، كررت كأن

الحديث عنه لا يعنيها: العاهة!!

هل أنا حقًا جميلة كما تقول.

– أجمل بكثير، كامل بطل.

عبست لإصرارى، بفتور يزهد الحديث قالت: كامل معوق.

– رأيتك تحبينه.

بعفوية أجابت: لا أعرف إذا كنت أحببته فى يوم أو لم أحبه، تزوجنا أيام حرب الاستنزاف، أعجبتنى خفة دمه، أصبح ثقيل الظل، كآبته لا تطاق، مغرور جدًا بعاهته، تصوَّر!.

– كامل بطل بكل تأكيد، من حقه أن يفتخر بنفسه.

– أنت تتصور أن كل المصابين أبطال، إنهم مصابون، لو كانوا أبطالاً حقًا لما أصيبوا، رأيتهم هناك، فى المستشفى، فخورين بأنفسهم، لو سألتهم ماذا فعلوا لا يعرفون الإجابة، كانوا هناك وأصيبوا، نحن توهمنا بطولاتهم التى لم تحدث، تخيلنا لهم قصصًا خارقة لم يصنعوها، آمنت بعد ذلك بأن الرجال الحقيقيين لا يصابون، الرجال الحقيقيون ينتصرون أو يموتون.

– كامل بكل تأكيد صنع مجده، ليس واحدًا من المصابين، ليس مجرد مصاب.

– صدقنى، كامل لا يختلف عنهم، لماذا تصر على الكلام عنه، حدثنى أنت عن نفسك، الحياة جميلة، ألا ترى ذلك؟

تابعت متغاضيًا يائسًا: أحاول فقط أن أفهم لماذا تركتِه؟

– لأننى لا أحبه، لم أحبه فى يوم، أنا مثل أية امرأة أخرى أريد أن أحب، الزيجات التى تتم وقت الحرب لا تدوم، تنتهى سريعا، حاولت أن أحبه، لم أجد ما أتمناه، كل صباح كنت أسأل نفسى، أين أنا؟ الفراش ليس فراشى، الرجل ليس رجلى، البيت ليس بيتى، لم أعد أطيق إحساسى بالغربة، ذهبت.

– كنتِ فخورة به وقت الحرب.

– هيه؟! الحرب، الحرب، الحرب، ماذا أخذنا من الحرب غير الفقر والجوع، الحرب انتهت من زمان، كنت طفلة وقتها لا أفهم، لم أعد طفلة، كما ترى، الدنيا تغيرت، تغيرت، تغيرت كثيرا، أنت أيضًا تغيرت، ازددت وسامة، رأيت صورتك فى الجورنال، أنت وكيل وزارة؟

لم أجد ضرورة للإلحاح، «كما ترين»، صامتًا أنظر إليها، ثرثرت طويلاً، حدثتنى عن نفسها، عن أسرتها، عن أمها المريضة، عن شقيقها الجامعى، عن جيرانها، عن الشيخة صباح جارتهم فى نفس المنزل، عن حبها لها، عن البيض أبو صفارين، سألتنى إن كنت جربته، قلت: «لا أستطيع»، قالت: إنها كانت تأنف منه حتى تذوقته عند جارتها التى تحبها، أغراها مذاقه، فتعودت عليه، سألتنى: «لماذا تتهيب الأشياء الجديدة؟ عش حياتك، الحياة متعة حقيقية، علينا أن نساير التطور، هناك يجعلون الدجاجة تبيض مرتين فى اليوم، تمكنوا من أن يجعلوا البيضة بصفارين». كنت أستمع إليها ساهمًا، تساورنى الرغبة

فى الانصراف، رنوت بإجلال إلى العذراء الحزينة التى تزين الحائط، شعرت أنها وحيدة، غريبة بحزنها عن المكان.

الطريق إلى بيت كامل ليس طويلاً، فضلت السير عن السيارة، مشيت أفكر، أنظم أفكارى، عندما فتح الباب حدَّق فى عينى، يستشف الإجابة، أطرق بحزنٍ يائسًا، لم أتكلم، صامتًا جلس دون أن يحتفى بدخولى، جلست أمامه حزينًا، لا أجد ضرورة لوجودى معه، على الحائط خلفه تبينت الشهادة التى حملتها إليه ذلك اليوم البعيد، فى إطار خشبى أسود، معلقة فوق رأسه فى فراغ الحائط الباهت، حاولت أن أقرأ، محا الزمن المداد الأسود الأنيق الذى كتبت به، لم يبقَ ثابتًا غير شعار الفرقة، وشبح كلماتٍ عزيزة لم يعد أحد يستطيع قراءتها سواه.

البطـــل



على الجانب الآخر من الطريق، فى المقهى المقابل لمدخل الحارة، أبصره الرجال وهو يستقيم بطوله، ناهضًا بسرعة من عثرته، ثم وهو يعدو هاربًا، متقافزًا هابطًا درجات السلم الحجرى المتآكلة، التى تربط الحارة بالشارع الموحل - بدا جسده الضئيل مديد الطول خلال النور المعتم للمصباح الغازى المعلق أعلى الحائط بمدخل الحارة، وأضافت إليه الظلمة الملتفة حجمين آخرين إلى حجمه.

كان الرجال المزدحمون يتابعون المشهد من باب المقهى نصف المغلق، وقد اضطروا للانحناء، حتى يستطيعوا الرؤية، تتبعوا عدوه المتخبط على الأسفلت الموحل، وهو يجرى باتجاههم، لم يلاحظهم مما يعتمل فى صدره من رعب، وصاح

الرجال بالمعلم عبد النبى عندما اقترب منهم، اندفع المعلم للطريق، واختطفه بذراعه، وبسرعة عاد به للداخل، وصوت باب المقهى يواصل ولولته الكئيبة الصدئة، حتى اصطدم بالمصطبة الحجرية، مغلقًا المكان على من فيه.

تنهد المعلم براحة، وهو يشعل الكبريت ويعيد إضاءة الكلوب، تألقت نظرات الإعجاب حوله، وقد انكمش على الكرسى متلاحق الأنفاس وسط الجمع المنبهر الملتف، مسحته العيون بتبجيل، اختلطت الهمسات والدمدمات، محمحمة، تسلم يدك.. كانت طلقة محكمة ما شاء الله كوّمت ابن الكلب من أول مرة.. والله العظيم.. طعنة قرن غزال جابت مصارينه على رجليه.. قرن غزال! سكين جزار طولها نصف متر. يا ناس حرام.. أبصرته بعينى وهو ينهال على رأسه بحجر الرصيف.

صلى على النبى أنت وهو.. صاح المعلم عبد النبى مُزيحًا الزحام من حوله، وزجرهم ليصمتوا.. دعوا الرجل يسترد أنفاسه.. قتل رجل غير قتل فرخة.. وما بالكم والقتيل عسكرى إنجليزى أكبر من ثور الجاموس.

ران الصمت، والفضول يحترق فى العيون، الكلمات تميتها نظرات المعلم عبد النبى الحاسمة، ومن يجرؤ على مواجهته، وكم جلبابه المرفوع يكشف عن السيف فى كف الزناتى الممتطى سبع الفلا، ولم يكن المعلم نفسه أقل فضولاً من الرجال، وللصبر دائمًا حدود.

– وبعد يا بطل؟!..

قالها المعلم وهو يزفر متنهداً، فلقد آن الأوان للبطل أن يشنف الأسماع بالقصة، والحقيقة أن المعلم على ثقة كاملة من تصوره لما حدث من البداية للنهاية، فبحكم خبرته دون الجميع يستطيع أن يشعر بقسوة النصل الحاد وهو يصطدم بكثافة اللحم الحى المرتعش، وهو الوحيد الذى يعرف حرارة الدم المنبجس، وطعمه المالح إذا وصل رشاشه للفم، ولكن المعلم الشغوف بقصص البطولة ككل الرجال المحيطين بالبطل، يريد أن يستمع، يتحرق شوقًا وقد طال الوقت وآن الأوان، هلل وكبر وصفق بحماس، يستحث البطل على الكلام، ما باله جالسًا منكفئًا، مرتعشًا ضائعًا بين الأنفاس المذبوحة شهيقًا زفيرًا، ألا يستطيع أن يتمالك نفسه، قالها المعلم فى نفسه وقد بدأ صدره يضيق من منظره كل هذا بسبب قتل كلب إنجليزى واحد.. يغالب المعلم بوادر التذمر التى بدأت تملأ صدره كما بدأت الكراهية تتسرب إلى صدور الرجال المحيطين، المفروض أنه بطل، وأنفاس البطل كما يعرفون جميعًا لابد أن تكون منتظمة انتظام بندول ساعة مسجد محمد على الشامخ بمآذنه فوق القلعة القريبة. وحتى ولو كان كف الاسترالى كما يخمِّن المعلم عبد النبى المتمرس تزن خمسة عشر رطلا، لا يهم فعيال مصر عيال، الولد يشيب النملة، وقد رأى المعلم عبد النبى بعينيه الجندى الاسترالى حين شارف مدخل الطريق، فانفض سامر

الصغار، انشقت الأرض وابتلعتهم، وقفز ركاب الترام من الترام هارعين لأقرب منزل، وأوصدت نوافذ البيوت، وأغلقت أبواب حوانيت الجزارة والمخبز، وسيد اللبان انتشل أنفه من السماء فانزوت مختفية خلف حديد دكانه، وشعر المعلم بغصة حسرة عندما تذكر كيف أطفأ الكلوب، جامعًا زبائنه، يغطى ذعرهم ببدنه الضخم، والخوف يعتصر قلبه، ومن خلال باب المقهى نصف المغلق رأوه.

على مبعدة بدا الجندى الاسترالى المخمور كالمارد الذى خرج من القمقم، كعب حذائه يشعل النار باصطدامه بالأسفلت، يعرفون تمامًا أن بإمكانه أن يلتهم عشرين رجلا، صدره أضخم من صدر الغول، يشبهه بلونه القاتم، وعينيه المشتعلة بوميض الدم، وشفاهه الغليظة كشفاة الثور. تابعوه وهو يصعد السلم الحجرى الذى يفضى لباب الحارة، حتى سدت ضخامته الباب وارتفعت ذراعاه تجذب القميص عن صدره، وخلعت قلوبهم خلعًا زمجرة الوحش الغضبان.

– وبعد يا بطل..

تساءل المعلم وهو يزفر بضيق، وشجع ضيقه الرجال، فشتتت أصواتهم الصمت، وبعد يا بطل.. ما هى الحكاية.. ماذا.. كيف حدث.؟، تململ فوق الكرسى القش، وهو يحدقهم بأنفاسه المتقطعة.. عندما وصل إلى نهاية الحارة خارجًا للطريق، باغته ظل القادم، فتسمَّر بالأرض، واستمات محاولاً

استجماع نفسه الهاربة، والذعر يفتك به، تقدم خطوة وظله يشب ويرتفع، ويملأ كيانه مدخل الحارة، استعاذ بالله من الشيطان، بسمل نصف البسملة، ولو كان عفريتًا لهان الأمر، وتمكن من إكمال باقى البسملة لكنه من جنود الاسترال الملاعين، انخلع من الزمجرة، وانتفضت بنيته الضئيلة، ولا مجال للتقهقر، والفرار مستحيل، انسحق داخل الحائط الحجرى، حين هجم عليه الوحش، منتصبًا أمامه، ولا حيلة له أو أمامه، حدجه بعيونه الحمراء وهو يضرب قبضته اليمنى بباطن اليسرى، يتفحصه بكراهية ومقت واستهزاء، أرجع قبضته اليمنى إلى الخلف متهيئًا لتهشيم جمجمته، وهب، انزلقت قدماه المرتعشة خوفًا فسقط جسده الهزيل فى الوحل، فى اللحظة نفسها التى اندفعت قبضة الاسترالى اندفاعة خاطفة للأمام لتخترق الحائط جاذبة معها الجسد الضخم بجماع ثقله، وبكل قوة، فتهشم رأسه على الحائط الحجرى الصلد، وكل ما فعله أنه تحرك بسرعة متجنبًا جثة الاسترالى الساقطة، وبدون تفكير اعتدل ثم أخذ فى العدو، مازالت العيون متشبثة بوجهه، تشده شدًا من شروده، ثم يا بطل.. ماذا حدث؟! كيف فعلت.. اطربنا بالتفصيل.. الحكاية..؟!

– ما إن رأيته حتى تملكنى اليأس.

قاطعته النظرات المستنكرة قبل الكلمات المكذبة، بحثت كل العيون فى العيون الأخرى عن تأكيد مجهول، وبصيص نور غامض يملأ القلوب، أكدت العيون لنفسها أن البطل لا يمكن إلا

أن يكون بطلا..

– يا للتواضع!!

– نحن إخوة.

– ليس بيننا واشٍ.

– سرك فى بئر..

نظر إليهم نصف نائم.

– ولكننى اعتدلت.. وتمالكت زمامى. بادرنى بالهجوم..

فأخذت خطوة للخلف..

– لا .. هذا كثير علينا..

– لماذا لا تقول الحقيقة..

– نحن ستر وغطا.

وبصوت باهت تابع: ثم لكمته شمالاً.. وعاجلته باليمين بقرن الغزال فسقط كالجوال.. ورفعت الحجر بين يدىَّ وهويت.. وكانت جميع العيون تمتص سحنته الشاحبة بإعجاب وحماس.

الأب



على الحائط نفسه بالحجرة، وفى نفس المكان تماما، يطالعه الوجه الرحيم لسعد باشا، بنفس الملامح الوقورة التى لم تبهت مع الزمن، من بين تلافيف الكهولة ترنو عيناه العطوفة بشفقة غامضة إلى مدى أفسح بكثير مما يمكنه أن يدركه، وقد وقف أمامه ببزته العسكرية، تعلق بوجهه الهادئ الرصين منذ وعى الدنيا، ومازال يحب نفس النظرات الشفوقة حتى هذه اللحظة، بعد أن صار رجلاً، ألقى بنفسه بين أحضان وجوده الحى الدائم الذى يحتوى فراغ الحجرة بأثاثها القديم، أسفل الصورة على أريكة الصالون جلست زوجه ساهمة، تتحسس بيديها بطنها المتكور البارز، وعلى مقربة من باب الغرفة وقفت أمه تائهة. لم تحاول عندما استقبلته مداراة دموعها، التصقت شفتاها بوجنتيه

متشبثة،، عجزت أن تبعدهما عن خديه، فربت ظهرها مشفقا، ابتعدت تمعن النظر إليه، تشرب سحنته الغليظة السمراء، تحفظ ملامحه، تكرر حفرها من جديد داخلها، حتى لا يغيب عنها، ليست واثقة من رؤيته مرة أخرى، قلبها المنقبض يحدثها، ونفسها حزينة، الأسى يتسلل إلى صدرها رغماً عنها، وعتمة داكنة تغشى مشاعرها، تطفئ أنوار الطمأنينة المستقرة التى لم تفارقها فى يوم من الأيام، وسألها دون أن يحاول تهدئة عواطفها:

– ألم يستعد أحمد بعد؟

أجابت باقتضاب هامس: مازال يستعد.

جسمها الأبيض القصير المستند إلى الحائط المجاور للباب، يخذلها، الوهن يخلخل ساقيها، حائرة بين أن تترك نفسها واقفة تشبع نهم أشواقها من وجهه، وبين أن تذهب لتعين أخاه فى ترتيب حقيبته، وتراه هو الآخر.

لا يطيق الانتظار، يتساقط الحزن من عيون أمه ويثقب أعماقه، يحاول أن يخفى توتره بابتسامة فاشلة، والأسى الغامض ينتقل إليه، ويتسلل ببطء إلى صدره، أمام وجه أمه تنبعث طفولته المخبوءة، المختفية خلف جدية لا تفارقه، فلا يتمكن أحد من ملاحظتها، داهمه إحساس الخوف من المجهول، وهزته الرهبة، سرقت عينه نظرة وجلة إلى بطن زوجه المتكور، هل سيرى طفله؟ من أجله تزوج.. سيطرت عليه شهوة لا تقاوم،

واستبد به شوق هائل لأن يكون أبا.. هكذا فجأة.. استبدت الرغبة بكيانه.. عاتية عنيفة.. أطاحت برفضه الدائم لفكرة الزواج المبكر.. تزوج لينجب الولد الذى يريده أكثر من أى شىء آخر.. يجب أن يكون ولدًا.. لابد أن يكون ولدًا.. هو واثق تمامًا بأن هذا البطن البارز يحمل فى أحشائه الولد الذى يحن إليه، تؤكد أمه وهو يصدقها: إن البطن المتكور الكبير يحمل ولدًا، أما البطن القليل التكوير والبروز فجنينه بنت، وأمه بلا شك على دراية وعلم واسع بهذه الأمور، الفضول يقتله، والوقت لم يسعفه ليراه.. هل سيراه.. هل سيتمكن من رؤيته؟! يتمنى أن يعرف شكله.. ملامحه.. ولون بشرته.. لون عينيه.. شكل أذنيه وفمه وذقنه، شعره، شعر حاجبيه.. فتحتى أنفه.. قدميه الصغيرتين.. هل ستمكنه الأيام؟ شعر برغبة عارمة فى التدخين، النهار مازال فى بدايته، نظر إلى ساعته، أمامه ساعات كثيرة قبل أن يحين الإفطار، أين سيؤذن المغرب عليه؟ أينما سيكون هو المكان الذى أصبح يشعر بالانتماء إليه، منذ استلامه برقية الاستدعاء، انتقل إليه، التف حوله زملاء السلاح، رجع إليهم كأنه لم يفارقهم، مضى إليهم سريعًا، وغاب عن كل شىء يحيط به، بدأت الحرب التى طال انتظارها، اندلعت من بين الضباب الكثيف، سافر إلى الجبهة قبل أن يتهيأ للسفر، قبل أن يخطو خطوة واحدة، أمس تشبثت زوجه به: محمد لا تتركنى، نفخت صدرها رمانتين، عطرت الجسد المرتعد من قسوة البعاد، تفجر

نبع الشهد على الشفتين، والنساء كالحنطة الطيبة تحصد بالليل، كان قد تمادى فى السفر، وتغلغل فى الفراق، فلم يبقَ منه غير الظل الباهت على الفراش، قبَّلها كأنما يرسل قبلاته داخل مظروف حربى مغلق بخاتم الجبهة.

- ماذا يصنع أحمد طيلة هذا الوقت؟

أجهشت أمه: لا تتعجل الأمور مثل أبيك.

تدخلت زوجه مستسلمة: منذ الأمس، صار كالطفل ليلة العيد.. وبأسى: شدَّما هو سعيد بهذه الحرب.

- ألستِ سعيدة أنت الأخرى بهذه الحرب؟

- ولكنك ستسافر.

- مهلاً دخل أحمد بزيه العسكرى، صافحه بشدة، عانق كل منهما الآخر بقوة، يشعران الآن أكثر من أى وقت بانتماء كل منهما للآخر، ضاحكًا قال أحمد: عرفت اليوم فقط أننى أكثر منك حكمة.. حين رفضت الزواج..

- حكمة! قل الجبن، علينا يا حبيبى أن نعيش حياتنا.. نعمل ونلهو ،نضحك ونبكى، نتزوج وننجب، وأيضًا نحارب.

- ولكنى بلا شك أسعد حالاً منك، أنطلق للحرب خفيفًا ظريفًا لا أحمل همًا مثلك ولا أترك أحدًا ورائى.

قاطعته الأم - أنا وراؤك - وأردفت بصوت خافت، وكذلك أبوك، رد ساخرًا: أبى ورائى؟ أتصدقين نفسك.. أبى دائمًا أمامنا. ربما.. ربما وراؤكِ أنت.. قطب جبهته، ونفخ صدره، وشد

قوامه ورفع ذقنه إلى أعلى شامخًا بأنفه وقال بصوت جهورى مقلدًا أباه: أنا وراؤك يا امرأة، فكفِّى عن البكاء، لقد أنجبنا رجالاً، لنا أن نفتخر بهم، عليهم أن يموتوا لتتم سعادتنا بهم، ثم تابع أحمد بصوته الطبيعى: أمى أظن أبى يتمنى هو الآخر أن يذهب إلى الحرب معنا.

ارتسمت بسمة وضيئة على وجهها المستدير: قص علىَّ أمس من جديد بطولاته أيام ثورة سعد.. وحكاياته القديمة عن اليد السوداء.. - وتنهدت - لم يكف عن الحكايات حتى بعد أن غلبنى النوم.

- أبى ليس سعيدًا بالسبعين التى تقصم ظهره.

قال محمد، فسأله أحمد: أتظنه يبكى ونحن ذاهبان ؟

انفجرا ضاحكين، وتبسمت الأم والزوجة، علق محمد: ياالك من متفائل.

فى قرارة نفسه فكر فى سؤال أخيه، من يمكنه التكهن بتصرفات هذا الرجل؟ أو بمواقفه المباغتة التى تثير الرعب منه، رغم حبه لأبيه وحب أبيه له، والصداقة التى نمت بينهما بعد زواجه، فمازال أبوه يحيره، ويعجز حتى الآن عن التنبؤ بتصرفاته، كما كان الحال من قديم، لم ينسَ بعد كل هذه السنوات الطويلة التى مرت، عندما ضبطه فى الطريق برفقة حبه الأول، كان فى الرابعة عشرة من عمره، وكانت تكبره بعدة سنوات كثيرة، توقع أن يعاقبه، أن يجلده بغضبه العنيف، مات

فى جلده وهو يناديه بعد يوم كامل، جفف الدماء فى شرايينه، وقف أمامه ذليلاً خائفًا، صب جام غضبه على رأسه، وقسى عليه تقريعًا وتأنيبًا ولومًا؛ لأن جمال المرأة التى يرافقها لم يرضِ ذوقه، فسيقانها رفيعة كسيقان الماعز. اختلطت ابتسامته بابتسامة ثانية غلبته وهو يواصل الاستماع لشقيقه:

– قطعًا سيصافحنا بشدة بقبضته القوية، حتى يخلع ذراعينا وهو يهدر.. وعاد أحمد يقطب جبهته وينفخ صدره: لاتعودا للبيت إلا منتصرين، بالنصر وحده تنالا رضائى وتكونا أبنائى.. الموت أفضل من العار، إياكما.. إياكما..، واسترد أحمد صوته الطبيعى: هل تذكر عندما خاب فأله فى ثالثنا محمود، فأجهز عليه بنار غضبه، وحرمه من المصروف عندما أعفاه التجنيد لعدم اللياقة الطبية؟، وعاد يقلد صوت أبيه: كيف يخرج من صلبى عاجز ؟!.

قالت الأم: كان الله رحيمًا بى، فأبقى معى أحدكم.

– ماذا تقولين يا امرأة ؟

باغتهم بصوته المدوى، وجسده الضخم السامق الطول، لم ينتبه أحد لخطواته، فهبوا واقفين.

– ماذا تقولين يا أتعس خلق الله، ما أشد سعادتى لو ذهب الثلاثة إلى الحرب أمام عينى، ما كانت الدنيا تسع فرحتى وزهوى، وقد خرج من ظهرى ثلاثة رجال، هز رأسه آسفًا: ما أتعسنى بثالثهم، أشعر بالمرارة تكوى قلبى، وقد خذلنى هذا

الضعيف العاجز الذى لا يصلح للحرب كالرجال. تلاشت الأم لائذة بالصمت، تعلمت من العِشرة أن تتجنبه، راضيًا أو غاضبًا، وتدرك بالتجربة النتائج الوخيمة لمواجهته – إنهم ليسوا أولادنا يا قليلة الإدراك.. ليت هذه السبعين التى أحملها كانت عشرين أو ثلاثين لأذهب معهما... ها أنا أموت على فراشى مثلما تموت العير، يقيدنى العجز بأغلال الضعف والشيخوخة، أتريدين يا قاصرة العقل أن نستورد رجالاً من الخارج يحمون أرضنا ويدافعون عن أعراضنا، اغربى فاغسلى هذه الدموع القبيحة وتطهرى منها واستغفرى الله.. لقد أثمت وأغضبت الله.. من مات فى سبيل الله مات شهيدًا.. ومن مات فى سبيل وطنه فهو شهيد.. قاطعه محمد محاولاً تخفيف حدة غضبه: أتيت بزوجتى كما أمرت.

– اذهب ولا تحمل لها همًا..

تململ وانتابه القلق، فكر وتراجع، جمع شتات نفسه.. وأحجم، ثم تشجع وأقدم، همَّ بالكلام، فزمجر الأب الذى اقتحمه بنظراته الثاقبة، لم يقوَ فى يوم على مواجهتها بعيونه، خفض بصره للأرض، وارتعش جسده، وقد دارت غضبة الأب حول رأسه.

– اذهب ولا تحمل لها همًا، يا قليل الأدب لا تفكر، إلا فيما أنت مقبل عليه، لن أكلَّ أو أملَّ، لم أكل فى يوم بكم جميعًا.. كبيركم.. وصغيركم أكل من أكتافى.

– لكن يا أبى...

– صه.. لا تضف شيئًا يا ولد.. هذا واجبى الصغير أؤديه ليس نحوك.. فلا تعترض.. امضِ إلى سبيلك، كل الأمور ستكون أفضل مما لوكنت موجوداً.

– قال أحمد: وفرت عليك عبء زوجة أخرى يا أبى..

ارْبَدَّ وجه الأب، وكشر، وانفجر صوته عاتيا:

اخرس، صغير فى كل تصرفاتك، لست قويًا مثلى أو جادًا كأخيك.. أنا غير مطمئن لك..، أقولها واضحة لا لبس فيها ولا إبهام لو جبنت هناك كما أنت جبان هنا.. فلا تعودنَّ للبيت.. هذا البيت ليس للضعفاء ولن يكون للضعفاء أبدًا. مادمت حيًا.

ردَّ أحمد باسمًا، الويل لى ذهابا وعودة.. أعدك بأن أسجل كل ما أقوم به ليكون شاهدًا عندك.

– لا أتمنى إلا أن أستشهد معكما.

– ولكننا سنعود.

– بالنصر وحده تنالان رضائى وتكونان أبنائى.. وافهما هذا جيدا.

لم يكف الأب عن توبيخ زوجته، وهى تودع ابنيها، لم تلذ بالصمت، ولم تكف عن البكاء، لم تكترث لغضبه، مرت الشفاه على الخدود المبتلة مرورًا عابرًا يختصر الألم، بترت المشاعر الجياشة تحت نظرات الأب الساخطة، مس جبهة زوجه مسًا خفيفًا فانتحبت، نظر إليها لائمًا، وبحنوٍ ودعت عيناه بطنها

المتكور، هدر الأب فانتشل ابنيه من حنان المرأتين، صافحه محمد بقوة، وانحنى أحمد فقبل يده، جذبهما إليه معًا، وقبَّلهما قبلة جافة سريعة تأمرهما بالانصراف، حملا حقيبتيهما، ومع خطواتهما القوية هلل الأب، تعقَّبهما حتى الباب الخارجى، يسدُّ بجسده الضخم الطريق على الأم والزوجة حتى لا تلحقان بهما: مع السلامة أيها الأبطال.. جاهدا فى سبيل الله حق جهاده، قاتلوهم يقتلهم الله بأيديكم.. وفقكم الله.. وفقكم الله.. وفقكم الله.

رويدًا رويدًا اختفت قامتا الأخوين، ابتلعهما الطريق الطويل الممتد، وقف العجوز محدقًا مليًا فى الفراغ الذى تخلف وراءهما.. واستدار عائدًا، يدب الأرض بقدميه الثابتتين، مرتفع الهامة صامتًا فى جلال مترفع.. كانت الأم والزوجة قابعتين بالغرفة، منزويتين، تختفيان عن عيونه، تبكيان فى صمت. رمقهما بقوة: أولى بكما أن تفرحا مثلى، وتبتهجا.. هذا شرف عظيم لا يحظى به إلا من أكرمه الله.. كفًّا عن البكاء. يالها من سعادة أن يكون من نسلنا أبطال يا امرأة.. صمت قليلا وتابع: لو تناسينا الشرف ألم يكن من الأفضل أن نداري الدموع حتى يرحلا منشرحى الصدر.

خلَّفهما مغلقًا باب حجرته.. ومضى واهنًا إلى فراشه، وقف مليًا أمام صورة ابنيه التى صمم على وضعها فوق رأسه، أدام إليهما النظر، ثم انفجر معولاً فهز البيت تهدجه العنيف بالبكاء.

حرب الزناتي



انتفضت على صوته مرتاباً، لا يمكن، مستحيل أن يكون هو، تلفَّتُ حولى أبحث عن صاحب الصوت، ليس هو بكل تأكيد، النبرات التى تناهت إلى سمعى تشبه نبراته، البحة الممحوة التى لا تزال عالقة بذاكرتى تكاد أن تكون هى نفسها، قرقرة الضحكة المنطلقة بصفاء وخلو بالٍ والتى لا يمكن أن أخطئ فيها. هل يمكن أن تكون هى؟.

الوجوه مزدحمة، اللغط الوقور محاصر بأبهة البهو الأنيق لقاعة الاستقبال الفخمة بمبنى إدارة السلاح، قاعة الأقدار كما نسميها، هنا يتحدد مصيرنا، التكليف والعودة، التدريب والترقية، كل ما يمس شئوننا الشخصية، تحت الأضواء المشرقة تجمَّعنا عائدين من الجبهة، انتهت الحرب، يحمل كل منا خطاب الوحدة العسكرية التى أُلحق بها عند استدعائه،

وشهادة إخلاء الطرف، وفى صدره دهشة كبيرة لأنه مازال حيا، ليس منا من توقع أن يعيش حتى هذه اللحظة، أن يقف بقاعة الأقدار منتظرًا الإذن بالعودة إلى العمل، الرجوع إلى الحياة اليومية المعتادة، ذهبنا نحمل الموت فى قلوبنا، وعدنا ننوء بالرغبات العارمة، مفعمين بأشواق مزدهرة، وأحزان كثيفة غائرة مستقرة السواد، فوجئنا فى البهو الكبير ببعضنا، التقى الأصدقاء بالأصدقاء، وبغير الأصدقاء، احتضنتْ الصدور الخشنة الصدور الخشنة، تجمعت صُحْبُ الرفاق، ملتفة دوائر، دوائر فى زحام رصين، صيحات الفرح حريصة على هدوء القاعة، لكنها تنفلت من إسارها فينة بعد فينة، مستبشرة بوافد جديد طال انتظاره، تهلل لقدومه حين يدلف من الباب الكبير إلى زحام المكان، العيون المتوهجة بالفضول والترقب متعلقة بفراغ الباب، تنتظر، كنت الوحيد بين الجميع الذى أقف مطرقًا، لا أنتظر أحدًا، ولم ينتظرنى أحد، فالزميل الوحيد لى فى الدفعة، دفعتنا، استشهد، الصوت ليس صوته بكل تأكيد.

على مبعدة فى ركن القاعة رأيته، عثرت على وجهه المستطيل، شعره الكستنائى الخفيف كما هو، لا يكفى لتغطية صلعته الخجولة، قسمات الوجه الذى يفيض محبة وطيبة، عيناه الغائرتان أسفل عظمتى وجنتيه البارزتين مازالتا غائرتين، ذقنه المستدير المندفع للأمام يندفع للأمام كما كان، فمه المفدوغ باتساع شدقيه مفدوغ يكشف عن أسنانه الكبيرة غير المستوية،

الجبين عريض الحاجبين، الخدان، شحمتا أذنيه، شاربه الدقيق، التفاصيل كلها كما هى، إنه هو بكل تأكيد، يقف ضاحكًا ضحكته الوديعة الهانئة، الزناتى، الزناتى مازال حيًا، نفض قلبى فى انبلاجة المفاجأة، السواد القاتم الذى اقتحمنى مستقرًا فى أعماقى، يوم دهمنى نبأ استشهاده.

انتبه الزناتى بدوره إلى وجودى، أحسست بانتفاضته من مكانى، صمت برهة محدقًا محملقًا، مندهشًا يتفرس قسمات وجهى، يلمها يجمعها معًا متممًا على خطوط سحنتى، ثم صرخ فرحًا: «غير معقول»، ترك من حوله بغير استئذان، واندفع نحوى متصايحًا بفرح: «لا يمكن»!!!.

القبضة تضغط بقوة على القبضة، الكف يشد على الكف، كل منا يؤكد للآخر وجوده، ويتأكد بدوره من وجوده، «لست وهمًا ولست واهمًا»، الدماء تتدفق حرارتها فى الشرايين، القلب ينبض بانتظام دورة الحياة الفسيحة المتسعة باتساع كون مزدحم بالأكوان: «سمعت عن استشهادك»، قال: «قلت فجعت بخبر استشهادك»، من مركز القيادة المتأخر للفرقة تحركت يومها، الأوامر أن التحق بالقوات على خط الاقتحام، مرقت الناقلة تخترق وادى الملاك، أجلس بجوار السائق، أجذب انتباهى جذبًا من شتات التهيب، أعين نفسى على وأد الخوف، ولم أنتبه لانعطاف اللورى يسارًا صاعدًا على الطريق الصحراوى، أستروح عطر الأحباب كلما اقتربت من موقع

الكتيبة، كتيبتى القديمة، المنطقة مهجورة، الهواء يزدحم بالهواء، الجو بدأ يتكهرب بموجات التوتر، ذات الرائحة الغريبة المنذرة، انعطفنا يمينًا إلى وصلة سرابيوم، الشرطة العسكرية تقطع الطريق، ممنوع، شعرت بارتباك الناقلات القليلة فى الاتجاه المقابل، سمعت أنين العجلات، بدت وجوه الجنود مسلوخة، قاتمة السواد، تبرق العيون كنجوم محترقة فى عتمة ليل طويل، تخضع الناقلات والجنود لتفتيش دقيق، الوجه المكفهر المرهق لضابط الشرطة العسكرية يأمر بتجهم واقتضاب بالعودة من حيث أتيت، أبرزت أمر التحرك، أشاح بإرهاق، ممنوع، كلمات مدغومة قنوطًا تصل سمعى.. رأس المعبر سقط، ثغرة مفتوحة فى الخطوط، مبهوتًا لم أجد مفرًا من الرجوع، عند نقطة الشرطة العسكرية على تقاطع الطريق الصحراوى مع وصلة أبى سلطان، توقفت، أعرفهم، ويعرفوننى، كانت النقطة ملحقة إداريًا بالكتيبة، كتيبتى، التى احتلت تلك المنطقة، منهمكون تمامًا، استقبلت بلا ترحيب، هناك الأهم الذى يشغلهم، الأجساد مكدودة، بصعوبة التقطت بضع كلمات، الكتيبة تحركت من يومين، مع اللواء، انتظروا يومًا كاملاً أمام المعبر، فى الدقائق الثلاثة الأولى استشهد قائد اللواء، لا تسأل، لا توجد معلومات، الوضع منذ الأمس مرتبك، قبل أن أعود لناقلتى استوقفنى، كان كما لو كان قد خرج لتوه من فوهة الجحيم، استأذن فى الركوب، يتوجه إلى قيادة الجيش، أجبته: «ينتهى طريقى عند قيادة

الفرقة»، لا بأس، حاول الركوب على ظهر الناقلة، ناديته ليجلس بجوارى، مدفوعًا بفضول لا يقاوم، أريد أن أعرف «من أين؟ - القنطرة ، مشاة؟ - مدرعات» تكلم كثيرًا بإعياء واستمعت بشجن، طغا وجه الزناتى على سطح ذاكرتى الملبدة بالهموم، قلت بعفو الخاطر غير منتظر إجابة، لى صديق هناك، سألنى بتلقائية من يتجاذب الحديث: «من؟ - ملازم أول الزناتى»، التفت إلى وجهى باهتمام - الزناتى عبد الحليم؟ أفقت: الزناتى عبد الحليم على، رد: الزناتى عبد الحليم، شعره خفيف، وجهه مستطيل، عيناه صغيرة غائرة فى وجهه، ذقنه مستدير بارز، فمه واسع، ويضحك بصفة مستمرة، - هل تعرفه؟، شكله واسمه نادران لا ينسيان، أردف: قابلته فى القنطرة، كان بطلاً، يرحمه الله، استشهد بعد يومين، صرخت: ماذا؟، كرر: استشهد بعد يومين، وقعت الواقعة، انفطرت السماء، انتثرت الكواكب، فجِّرت البحار وسجِّرت، كوِّرت الشمس، انكدرت النجوم وبعثرت، سيرت الجبال، حشرت الوحوش، كشطت السماء، حانت الساعة، وانفطر القمر، أريد أن أنأى بنفسى بعيدًا عن كل المخلوقات، أختنق بمشاعرى، كرهت ضيفى، أنقذه منى وأنقذنى وصولى للقاعدة.

زناتى يا صديقى الأثير، تأهبنا للموت، وتمنينا هذه الحرب، فلماذا أشعر بالأسى، وتخنقنى التعاسة، متى تحين ساعة استشهادى أنا الآخر، آمنت دائمًا بأن مصيرى ومصير الزناتى

مرتبطان على نحو غامض، أيقنت منذ تعرفت عليه بأن ما يحدث لى لابد أن يحدث له، وما يحدث له سوف يحدث لى، وكلما توطدت صداقتنا كلما ازددت اقتناعًا بصدق شعورى الغامض المبهم.

ببطء الأيام التى جمعتنا توطدت على مهل الصداقة، تعرفت على الزناتى يوم ضمتنا الزمالة فى كتيبة واحدة، كان الزناتى يكبرنى بسنوات قليلة، أقل من ثلاث سنوات لا غير، بدت لى فى ذلك الوقت ردحًا طويلاً هائلاً من السنين، كنا بطبيعة الحال بنفس الرتبة، خريجى دفعة واحدة، وإن كنت أقدم منه، حول هذه المفارقة تنامى إحساسى بارتباط مصيرينا، كما خيل لى، حين كلفت بقيادة سرية الشئون الإدارية، وكلف هو بقيادة فصيل دبابات وقر فى نفسى أننى اغتصبت من الزناتى حقًا من حقوقه، لم يكن لذلك معنى ما، فلا غرابة فى الأمر، والقواعد العسكرية تعتد بالأقدمية لا بالسن، هل بالغت فى إحساسى بفارق العمر بيننا، ربما، أما الزناتى، فكعادة الكبار لم يشعر إطلاقا بأننى أصغره، ولم ينتبه لما أكنّه من شعور، ولم يشعر أبدًا بأنه مغبون، لفتت المفارقة انتباهى إليه، فتحت طريقًا صغيرًا ممهدًا لنمو صداقتنا، رويدًا رويدًا ازدهرت الصداقة، ورويدًا رويدًا تضخم إحساسى الخفى بارتباط مصيرينا، وتأكد لى أنه ليس عبثًا التقينا، خاصة حين عرفت فى جلسة من جلسات التعارف أنه مدرس للكيمياء بالمدرسة الثانوية التى

تخرجت فيها، المصادفات الصغيرة المتوالية وطدت مشاعر الود، وأكدت مشاعرى الخفية «هل كانت وهمًا، ربما، وربما كانت للأوهام قوتها المؤثرة، كالحقائق تماما». بوغتنا ذات صباح، لا يختلف عن كل الأصباح التى نعيشها، بالقائد يستدعينا، وقفنا، يجلس خلف مكتبه، صوته تخلى عن صرامته، عيناه تصافح وجهينا بحنوٍ غير معهود، تفضلا، جلسنا، شعرنا بأن هناك شيئًا خطيرًا، شىء يكاد يبين من خلف صمته العطوف، وابتسامته اللطيفة: «أهلت نفسى مثلكما تمامًا على خوض الحرب معكم جميعًا، لكن للأسف، صدرت الأوامر بإنهاء خدمتكما»، صمت قليلاً، وتوجه بالحديث نحوى: «حاولت جاهدًا أن ألغى قرار إحالتك للاحتياط، كتبت فى تقاريرى أنه لا يمكن الاستغناء عنك، امتدحت كفاءتك، ولكن الإدارة بالقاهرة لم تستجب، وحسمت الأمر، عليكما تسليم أنفسكما غدًا لإدارة السلاح، أصدرت أوامرى بإنهاء كافة متعلقاتكما».

استغرقنى التفكير والزناتى بجوارى جالسين بالسيارة العسكرية التى تقلنا وأمتعتنا، سألنى بصوت مكتئب:

- لست سعيدا.
- وأنت؟.
- غير سعيد أيضا.
- أشعر أننى طردت من بيتى وتنكر لى أهلى.
- طاهرونى ليلة زفافى..

– ألن تنشب الحرب فى تقديرك؟

– يبدو أن عام الضباب أصبح سنوات طويلة.. وإلا فلماذا تخلَّو عنا؟

– اللعنة على هذا السكون..

فى قاعة الأقدار البهو العالى الجدران، وقفنا، تحت المصابيح الكابية المتشحة بالأحزان، نفس الوقفة التى نقفها الآن، وسط حشد كبير من الرفاق، ربما كانوا نفس الرفاق، نتسلم خطابات العودة، وأمام المبنى، نظر كل منا، أنا والزناتى، فى عين الآخر، العيون القانطة ملتصقة بالوجوه المكروبة، أعطى كل منا ظهره للآخر، بصمت من يدفنون قتيلا، وابتعد بهدوءٍ آسف.

القبضة التى تضغط على القبضة تراخت، اليد التى تشد على اليد أفلتتها، انتقلت تربِّت الظهر، أستعيد يقينى بأنه مازال حيا.

– صعقنى خبر استشهادك . قلت:

– فجعت بنبأ استشهادك عندما تواترت الأخبار بما حدث.

– خبر استشهادى!!، تخلى الحظ عنى، فلم أشترك فى معركة، أعادونى للقاعدة قبل عبورى.

ضحك الزناتى – والمعركة التى شاركت فيها لا يمكن أن يستشهد أحد فيها، أو يصاب.

– فزورة..

واصل الزناتى ضحكه – معركة وضع خطتها الجنود

بأنفسهم، ولم يقرها قائد، خاضوها من تلقاء أنفسهم بدون أوامر، رأيتها بعينى، واضطررت أن أخوضها معهم. وأحلنا جميعا للتحقيق.

نظرت مستغربًا، فتمادى فى الضحك، شدنى من يدى، لننتحى مكانًا غير قصى، على أطراف الزحام، شغوف بأن أسمع منك وعنك.

– مستحيل، أستمع أولاً لك يا زناتى، كلى فضول للاستماع، أريد أن أعرف كل ما حدث، منذ افترقنا ذلك اليوم بالتل الكبير.

لم أتصل بالزناتى ولم يتصل بى، مرت ثلاثة أشهر منذ افتراقنا بصمت أمام مبنى إدارة السلاح بشارع صلاح سالم، حتى كان ذلك اليوم، ظهراً وأنا مستلقى على سريرى لا أجد ما أفعله حتى يحين موعد الإفطار، استمعت لخبر عبور القناة، تصورت أن الأمر لا يعدو مجرد عملية محدودة للقوات الخاصة، وما أكثرها، فلا يمكن أن تعلن الحرب وأنا أتقلب فوق فراشى الوثير بغرفة نومى، لا يمكن أن تنشب الحرب ومازلت ببيتى، لن يحاربوا بدونى، توالت البيانات، فى المساء سلمت بأن الحرب اندلعت، وأننى فى احتدام الأحداث نسيت، نسونى، بدون تفكير اتصلت بالزناتى:

– زناتى قامت الحرب!

– لماذا لم نستدع؟

– أشتاق بشدة لزملاء الكتيبة..

- أسمع أصواتهم تناديني..
- هل سيتركوننا هنا؟
- كيف نسمح لأنفسنا بخذلانهم؟!
- هم بحاجة ماسة لوجودنا معهم..
- ما العمل.. في رأيك؟
- نسلم أنفسنا غدا للإدارة.
- اتفقنا.

انسلخت مشاعري عن كل ما حولي، سافرت إليهم وأنا ملتصق بنشرات الأخبار، شعرت بالغربة تبعدني عن الأهل، أريد أن أكون هناك مع زملائي، الآن، لم أهدأ إلا منتصف الليل حين وصلتني برقية الاستدعاء، خابرت الزناتي على الفور، وأكد لي بحبور أنه استدعي هو أيضا، صباح اليوم الثاني، التقينا، القاعة تموج بالحشد، بضجيج الحماس، أشرقت المصابيح الكابية فوق رءوسنا مشرقة بأمل غامض، انتهت أعوام الضباب، ميوعة اللاسلم واللاحرب، السنوات التي أمضّنا فيها الانتظار والترقب، ما انتظرناه طويلاً أصبح يقينًا يسطع بالبهجة والثقة في نفوسنا، ضحكنا أنا والزناتي بسببٍ وبدون سبب، مر اليوم بطيئًا، ماذا يصنعون كل هذا الوقت، صعدت الشمس السماء ثم ابتدأت في الانحدار، ثم أوشكت أن تغيب، فرحتنا تغيب معها، ونحن واقفون يوترنا القلق في انتظار الأوامر، «حضرات الضباط يمكنكم الإفطار في منازلكم، وتفضلوا بالحضور باكرًا

صباحًا، السادة الضباط القادمون من المحافظات الميس فى انتظارهم، تفضلوا حضرات الضباط بالانصراف» الصباح الثالث للحرب، احتشدنا، القاعة نفسها تموج بالنشاط والحيوية، الوجوه نفس الوجوه، والقلق أشد، ووقع الترقب أعنف، والانتظار أصبح أكثر مرارة مع أذان الظهر، ماالذى يحدث؟، هل انتكسنا مرة أخرى، لا يمكن، الأصداء الحزينة لما حدث تستيقظ من كوة الألم القاتل، لا يمكن ولن يكون، كل السنوات التى انقضت على ذلك اليوم النائى البعيد حملت تصميمنا نحن الذين عشناها على ألا يتكرر ذلك اليوم، أبدًا، أبدًا، لماذا يتركوننا، هذا ثالث أيام المعركة، والشمس بدأت فى الانحدار، تركت مركزها الشاهق فى ذروة السماء، وأخذت تميل نحو الغرب، نحو إظلام، مرت ساعة أخرى بطيئة ومملة، هل تكذبنا البيانات، هل تتكرر بشرى يا عرب، «حضرات الضباط، انتباه»، ساد السكون، لا تسمع غير وجيب القلوب، «حضرات الضباط انتباه.. حضرات الضباط الذين ستعلن أسماؤهم الآن سد خسائر ثلاثة فى المائة، الرجاء من كل من يسمع اسمه أن يتفضل بالخروج وركوب السيارات، بنظام نرجوكم.. سنتحرك فورًا إلى الجبهة».

لم يطل انتظارى والزناتى، نودى اسمى أولا، وبعده اسمه، فوجئنا عند خروجنا من باب البهو الكبير، على غير ما اعتدنا وقف رتل من أوتوبيسات مصر للسياحة الفخمة بلونها الأزرق المزدهر، نظر إلىَّ الزناتى: «أين مركبات الجيش.. حرب أم

سياحة»،؟! رغم اندهاشنا هيأ لنا ذلك إحساسًا بالشموخ والعظمة، بعد نحو ساعة تم الاستعداد، تحرك رتل السيارات، لم نكن نعرف وجهتنا، ومن أى طريق سوف نمضى، حين اخترقنا الطريق الصحراوى للإسماعيلية شاع الحبور داخلنا، وهانحن فى طريقنا للزملاء، رفاقنا الذين تركناهم فى الكتيبة منذ ثلاثة أشهر مضت، بدا الركب الطويل ملفتا، الطريق خالٍ تماما، لا أحد سوى الحافلات التى نستقلها، السماء الصافية تتكثف فوقها السحب كلما توغلنا فى المسير، كيلو مترا بعد كيلو مترا، تزداد اسودادًا كلما ابتعدنا عن القاهرة، عند الكيلو ستة وسبعين أصبحت السماء معتمة تمامًا، ليس ما عهدناه من سواد الغيوم الملبدة الكثيفة التى تحمل الخصب، هذه السحب السوداء القاتمة تحمل شيئًا آخر، تتكثف فيها الدماء والدخان، لها رائحة مقبضة منذرة، من أقصى البعيد تناهت بخفوتٍ شديد أصوات مكتومة لانفجارات متوالية، توقفنا عند نقطة الشرطة العسكرية، ليس طويلاً، وعندما تركت الحافلات الطريق الصحراوى منحنية يسارًا إلى الطريق الفرعى الذى يخترق وادى الملاك، تململ الزناتي: «إلى أين يمضون بنا»؟. أجبت: «من المحتمل إلى مركز قيادة الفرقة».

– كم أحب لو يتركوننا هنا عند نقطة الشرطة العسكرية لنصل إلى كتيبتنا فورًا، أوحشنى الرفاق.

كانت الكتيبة تقع على بعد عشرة كيلو مترات من نقطة

الشرطة العسكرية، تمامًا عند الكيلو متر ستة وثمانين، مفترق الطريق الصحراوى مع وصلة أبى سلطان يمينا والقصاصين يسارًا، لم تكن الحرب بالنسبة لى والزناتى تعنى أى شىء غير التواجد ومشاركة زملائنا، غبنا عنهم ثلاثة أشهر كاملة، وكلنا شوق للعودة إليهم، استيقظت وجوههم فى عيوننا تنادينا، أحمد مختار حراز، حسن شوقى الجميل، رفعت عيون سليمان ، مصطفى كمال، محمد زكى الرافعى، سعيد زكى، محمود العيوطى، عزت، أحمد فوزى، محمد فؤاد شبانة، فتحى جاب الله، أنور وشريف، تجاذبنا الذكريات والحافلات تمضى، لكنها لم تتوقف عند مركز قيادة الفرقة، كما كنا نتمنى، إلى أين يأخذوننا، لا نريد إلا أن نحارب معهم، سيطر علينا القلق من المجهول، شدخ التغرب إحساسنا بالسعادة والحبور، بعيدًا عن زملائنا تقتلنا الغربة، لا نعرف لماذا طال الطريق رغم قصره، قطعناه دائمًا فى أقل من ساعة ونصف من القاهرة، وها هى الشمس على وشك أن تغيب ترش الأفق بالحمرة الدامية، بعضنا أرهقه الصيام، وبعضنا يدخن بلا استمتاع، كنا على مبعدة خمسة وعشرين كيلو مترا من شط القناة الغربى، والحافلات تمخر الغروب بسلام.

قال الزناتى: الحياة ممكنة على الجبهة، العيش ممكن، والتعايش كذلك، لا شىء مستحيل يا صديقى كله فى حدود الطاقة الإنسانية.

أجبت: لم لا، الحرب فعل إنسانى، صنعة إنسانية، وكل ما هو إنسانى لابد أن يكون فى مقدور الاحتمال اللاإنسانى...

- كنت أتصور الجبهة كما تصورها السينما.. انفجارات، معدات تحترق، أبنية تنهار، رجال صرعى، الموت يحصد الجميع.. لا فرصة أمام أحد للحياة...

- حتى فى الأفلام هناك من يعيش وهناك من يموت... الأغلبية تعيش بلا شك..

- لو كانت الحرب غير محتملة، لو كانت الحرب تبيد الكل، لما لجأ إليها أحد، ولما تمسكت بها البشرية، كانت قد تخلت عنها منذ زمن بعيد.

غابت الشمس، غابت الصحراء فى الظلام، وهى تتلاشى على حدود الأرض الخضراء، انحرفت السيارات قليلاً إلى اليمين وقليلاً إلى اليسار، ثم استوت فى الطريق الضيق المندفع إلى التل الكبير، قلت نحن فى الطريق إلى قيادة الجيش، عند العشاء عبرنا الكوبرى فوق ترعة الإسماعيلية إلى الطريق الزراعى، سقط الظلام حولنا محكمًا ظلمته الداكنة، تقوقعت المدينة الصغيرة فى قبضة العتمة، شممنا فى الهواء المعتم رائحة الحرب، قبعت البيوت والطرقات والمحال والدكاكين فى استكانة، أشباح الناس خلف زجاج نوافذ السيارة، يدل عليها وهج السجائر المشتعلة، سياراتنا أيضًا معتمة، تتحسس أسفلت الطريق ببطءٍ وتمهلٍ حريص، العتمة داخل السيارة قتلت حركتنا

وأماتت كلامنا، انحنت السيارات إلى اليمين، مع الاهتزازات المتتالية أدركنا أننا نسير على درب ترابى غير ممهد، كم مر من الوقت فقدنا القدرة على التمييز، تحولت مع كل من حولى وما حولى إلى حلم غامض، لا هو حقيقى، ولا هو خيال، وعندما توقف رتل السيارات لم أنتبه، لم يعنِ لى ذلك شيئًا، حتى الزناتى ضاع منى فى متاهات الظلام، وسط بحر الظلمات الساكن سكون الموت، توقفت العيون عن أداء وظيفتها، سمعت باب الحافلة يفتح.. وصوت حى يوقظ جثة العتمة:

«حضرات الضباط، انتباه، معسكر الإمداد بالرجال بقيادة الجيش يرحب بكم... حضرات الضباط تفضلوا بالنزول مع حاجياتكم... حضرات الضباط اتبعونى من فضلكم.. حضرات الضباط السحور الساعة الواحدة لمن يريد... حضرات الضباط خيام الإيواء أمامكم على اليمين»، لم نكن لنرى أى شىء، نتلمس الطريق منضبطين مع صوت خطواتنا، تتلمس أجسادنا المكدودة بعضها، عرفت أننى دخلت خيمة عندما اصطدمتْ هامتى بقماشها المنسدل ولم أحمل نفسى مشقة البحث، انخفضت يدى فى الظلام تبحث عن حواف الفراش، لم أجد، انخفضت يدى أكثر تفتش عن لوح الخشب الذى يستخدم لنوم الجنود، لم أجد، انخفضت يدى أكثر إلى سطح الأرض، أحسست بخشونة قماش البطانية المفروشة أرضًا ألقيت حقيبتى قبل أن ألقى جسدى المهدود، شعرت أننى أغوص ببطانيتى فى الطين

البارد، ونمت ونام حضرات الضباط ليلتهم الأولى فى الوحل.

فى الصباح الباكر فتحت عيونى، عثرت على الزناتى نائمًا على النمرة الصوفية بجوارى، لا يزال يغط فى نومه غطيطا، تمطيت يدب النشاط بجسدى، وتبسمت عندما مرت أحداث الأمس، ناديت على الزناتى فبدأ يتحرك، وأفاقت بعض الجثث النائمة.

انتصبت فى الخارج، فقبلتنى أشعة الشمس، كانت أبهى من كل الشموس التى عرفتها فى حياتى، السماء شاهقة الارتفاع شامخة بزرقتها الحلوة، الهواء الغنى رطَّب وجهى، انتصبت الخيام فى صفوف منتظمة متتالية، وسط الغيطان، استولى الجيش على حيز هائل من الحقول ليقيم المعسكر، على مقربة من السور السلكى الشائك قصير الارتفاع الذى يسيج المعسكر، رأيت ساقية تدور، الجاموسة معصوبة العينين تلف، القواديس ترفع الماء، ويتدفق سلسبيل الفضة فى الترعة الصغيرة، على حافتها بيت طينى، وصبى صغير يجرى خلف حمارة تحمل السبخ، فى الحقل القريب شمَّر رجل جلبابه الأزرق، يعزق بفأسه يوسع للمياه الجارية، قفزت فوق السلك الشائك وقفز خلفى الزناتى، وخلفه عديد من الرفاق، خلعت قميص سترتى واضعًا رأسى فى الماء، باستمتاع مسحت صدرى، وساعدى: «صباح الخير يا عمنا، أهلاً بالرجال...»، بدون أن نطلب، وبعفوية فرش الحصير بجوار التوتة العملاقة

«صائمون؟... لم نأكل منذ صباح الأمس.. أهلاً بكم أهلاً» شد طبلية كبيرة مستندة تحت التوتة ووضعها أمامنا.. غاب فى البيت وعاد حاملاً مشنَّة عيش تتبعه امرأة شابة تحمل صينية كبيرة... أطباق قريش وطماطم وخيار وجبن قديم وعسل أسود.. وضع غلاية الشاى فوق نار الكانون وجلس يقلب النار، يغذيها بفروع شجر جاف،.. أكلنا مليا،.. وقبل أن ننتهى من احتساء الشاى وصل مكبر الصوت يدعونا أنا والزناتى دون بقية الصحبة، على عجلٍ أنهينا احتساء الشاى،... هرولنا شاكرين،.. وكانت هذه اللحظة هى آخر لحظات المسرات البهيجة لعدة أشهر قادمة.

حملنا لورى مكشوف كاكى اللون، اعتليت والزناتى ظهر اللورى بحقيبتينا، جنبًا إلى جنب، جلس نقيب من المعسكر بجوار السائق، لم نهتم بالتعرف على ملامحه، ترجرجنا بشدة مع ترجرجات السيارة وهى تئن متوجعة فوق نتوءات الطريق الترابى غير الممهد الذى سرنا عليه فى عتمة الأمس، ننظر بغير انتباه للبيوت الريفية المغبرة المتلاصقة على الجانبين، انحرفت السيارة يسارًا ثم اعتدلت على الطريق للإسماعيلية، عندما وصلنا الكوبرى الذى عبرناه ليلاً توقفت، سمعت غمغمات النقيب باسمى وأعقبه بخفوت: «إلى قيادة الفرقة.. تعرف الطريق»، رددت بالإيجاب وأنا أقفز إلى الأرض بحقيبتى، لم أحتضن الزناتى مودعًا، لوحت له محييًا، كان يحدِّق نحوى بحيرة...

لماذا تتركنى؟... لماذا لم آت معك، وتتساءل نظراته بأسى.. إلى أين سأمضى؟، واندفعت الناقلة دون أن تعبأ بمشاعرنا.

شارداً أتعقبها بعيونى حتى غابت فى الطريق الممتد الطويل، عبرت الكوبرى بغير تفكير، وقفت أنتظر أية حافلة تأخذنى معها إلى قيادة الفرقة، فرقتى.. لم أرَ الزناتى بعدها، حتى وصلنى نبأ استشهاده.

ضحك الزناتى وهو يحدثنى، واستمعت إليه ضاحكًا مصغيًا بشغف إليه فى الركن المنفرد الذى لجأنا إليه بقاعة الأقدار، لم تلهنا صيحات الفرح التى تجرح وقار القاعة، ولم تثر فضولنا، فلقد وجدته ووجدنى، ولم نكن ننتظر لأن نرى أى صديق آخر ولم يكن ليعنينا ذلك.

وصل الزناتى يومها إلى الكتيبة التى ألحق بها، عند الأذان، لم يحدد الزناتى وهو يحدثنى أكان ذلك أذان الظهر أو العصر، لم أهتم ساعتها بسؤاله، أو الاستفسار عن كثير من التفاصيل التى شغلت بالى بعد ذلك، وهى بلا شك تفاصيل على جانب كبير من الأهمية، كنت متعجلاً أريد أن أعرف ما حدث، شغوفًا بأن أسمع ماذا فعل الزناتى فى الحرب، وكلى فضول أن أتوصل إلى السر وراء ما أشيع عن استشهاده، هكذا ضاعت منى تفاصيل كثيرة حيوية، فإلى الآن لا أعرف أى طريق سلكته الناقلة الزناتى، ولكنى أعرف أن الطريق الذى قطعته الناقلة قد طال كثر مما توقعه للرحلة، فلم تلبث الناقلة أن تعدت نطاق مدينة

الإسماعيلية محتفظة بسرعتها، ونطاق مدينة الإسماعيلية بالنسبة للزناتى هو آخر حدود الدنيا المألوفة، خارج هذه الحدود لا يعرفه ولا يعنيه، عندها بدأ الزناتى يقلق، وأنا بطبيعة الحال أفهم لماذا يقلق الزناتى، وأتفهم تمامًا توتراته، فككل الجنود يكّن الزناتى لموقع وحدته عاطفة قوية، وينتمى تمامًا إلى ترابها كما ينتمى الفرد لتراب الوطن، بعيدًا عن أرض الموقع نستوحش الأرض، أى أرض، وهكذا كلما غزت الناقلة السير مبتعدة كلما اشتد توتر الزناتى وإحساسه بالغربة، وبابتعاد الناقلة أكثر بدأ يحس بنوع من اللامبالاة، فكل الأمور تستوى فى الأهمية، قال فى نفسه ليحدث ما يحدث، كان ساعتها فى قمة إحساسه بالافتقاد والغربة، إلا أن ذلك لم يخفف من توتره، ولم يزل شعوره بالأسى والحزن، كان وحيدًا تمامًا على ظهر الناقلة المكشوفة غير عابئ بتحديد الأمكنة، كلها بلاد غريبة، ولم يخرج من أدغال أعماقه الأسيانة إلا عندما اخترقت السيارة مدينة القنطرة شرق، أيقظه الفضول لمعرفة آثار المعارك على البيوت والناس والشوارع والشجر، فتشت عيونه عن آثار الدمار، رماد الانفجارات ، الجدران المهدمة، فجوات القنابل، خدوش الشظايا فى الجدران، تحطم الشبابيك، مخلفات المعدات، لا شىء يؤكد لعينه أن هناك معركة نشبت، يمر على خط الاقتحام، تعجب الزناتى فى نفسه، غير السكون المطبق على المدينة لا يلمس شيئا غير معتاد.

على شط القناة، شهق قلبه، أمامه على بعد يجسم البر الشرقى، تغيرت المشاهد فى عينيه، الساتر الترابى المرتفع تآكل، صفرة الرمال مسودة بالهباب، فدغات متسعة تتكشف أمامه، غائرة إلى العمق، عندما انحدرت الناقلة متجهة نحو كوبرى البراطيم شمخت أمامه أجساد الجنود مترعرعة من الفرحة، اندفعت الدماء الحارة فى شرايينه، فى خلايا جسمه التى نشطت، تتوثب بحماس، كل خلية تزاحم الأخرى فى حلبة راقصة، منخاراه اتسعا فجوتين جبارتين تعبًّان من الهواء البارد، حدقتاه تتسعان باتساع المشهد، جلده اكتظ بكثافة جسده حتى كاد أن يتمزق، شعر صدره انتصب لذة، أذناه تتحركان للأمام تتسمعان دبيب النملة، قلبه زادت ضرباته نشوة، ووجلا، استأسد شيء داخله متأهبًا صارمًا صلدًا ساخنًا عنيدا، ولكنه شعر أيضًا بالتهيب، يحس الآن بحنين جارف للأصدقاء، للزملاء، للرفاق، أين هم الآن؟ لن يراهم، كم تمنى أن يكون بينهم، سيقابل ويعامل ويشارك هنا رجالاً آخرين، لا يعرفهم، ولا يعرفونه، لم يدخلوا قلبه، ولم يقترب من مشاعرهم، هل سيحبهم؟ هل سيحبونه؟.. سأل نفسه ألهذا يشعر بالتعاسة؟

رحب به قائد الكتيبة، وجهه المرهق مألوف، وجه كالوجوه التى يعرفها، اطمأن إليه، اللهجة المعتادة، نفس الكلمات، افترش الأرض أمامه، بجوار دبابة القيادة المغطاة بشباك التهوية، رغم الإرهاق وعلامات التعب الشديد، العيون المكدودة

تتزلق ببريق قوى، الصوت الخفيض مشحوذ الصرامة.

- أنجزنا مهمتنا بدون خسائر تذكر، إصابات بسيطة، لا يوجد عمل ما يمكن إسناده إليك، لا تأسف، كتائب المشاة تحملت وحدها تقريبًا عبء المعركة، نسبة خسائرها محدودة أقل من التوقعات، عنصر المفاجأة حسم المعركة، لم يمكّن العدو من القتال أو الاستفادة من الموانع، تحصينات بارليف انهارت، ما سمعناه عن خزانات النابالم على جوانب القناة لم يستخدم، عبرت القوات بسرعة خاطفة.. أنجزت المطلوب منها بحماس، الروح القتالية مفاجأة هذه الحرب، فى أقل من الوقت المفروض طهر الجنود خطوط دفاعات العدو، واحتلوا التحصينات وأمّنوا رءوس الكبارى، اقتحموا المدينة، مناوشات محدودة.. قبل أن نتلقى أمر الاقتحام والعبور كانت عناصر العدو قد انسحبت، عبرنا بدون مشاكل كما لو كان تدريبًا على العبور كالذى تدربنا عليه فى القناطر الخيرية.. عندما بدأنا تطوير الهجوم واكتساب أرض صدرت التعليمات باحتلال موقع دفاع، قلت لى سد خسائر ثلاثة فى المائة.. ليس هناك ما نكلفك به، لكن أهلاً بك بيننا ومعنا، يمكن الاستفادة بك كمدرس للكيمياء، فى تدريب الجنود على الحرب الكيماوية وعلى استخدام معداتها لنستعد لأى احتمال.. لا شىء آخر...

ذكر الزناتى وهو يحدثنى اسم القائد، وأسماء الضباط الذين تعرَّف عليهم، من صاحبهم منهم، ومن لم يصاحبهم، بل وذكر

أسماء عديدة من أسماء الجنود الذين تعامل معهم، وهم الأبطال الحقيقيون للقصة التى رواها، ولكنى نسيت أسماءهم للأسف، فلم تعلق بذاكرتى أسماؤهم جميعًا، ولى عذرى، فأنا لم أعش بينهم، ولم ألتقِ بهم، ولم أشاركهم همومهم، ومن الطبيعى أن تسقط أسماؤهم، وأنسى الأسماء القليلة التى ظلت عالقة بذهنى، مع مرور الوقت، ولا أجد فى ذلك ضررًا كبيرًا، لن تضيف الأسماء إلى تفاصيل الأحداث شيئًا هامًا أو مفيدًا، ولقد كان بإمكانى أن أسميهم من عندى، ولكنى شعرت بأن ذلك سيفسد إحساسى بصدق الحكاية، ولم أجد أية ضرورة فى ذلك، فهم من البداية إلى النهاية جنود، لا يختلفون عن غيرهم، ولا يختلف غيرهم عنهم، ممن شارك فى صنع وقائع الحدث الكبير، لا يتميزون عن غيرهم لا فى الشكل، ولا فى السلوك، كما أعترف هنا مرة أخرى أننى لم أستوضح من الزناتى كثيراً من الأمور أراها الآن غاية فى الأهمية، وبالذات كل ما يتعلق بالموقع الذى احتلته الكتيبة، كان من الواجب علىَّ أن أحدد مكان هذا الموقع بدقة شديدة، بطبيعة الحال ذكر الزناتى بكل تأكيد مدينة القنطرة بشطريها غربًا وشرقًا، ومن المسلم به أن الموقع كائن بتلك المنطقة، ليس فى ذلك أدنى شك، فجانب من حديث الزناتى تعرض لقصة تحرير نصف المدينة الشرقى، ومن المؤكد أن معركة الكتيبة كانت جزءًا من معركة المدينة، ومرحلة من مراحل خطة استعادتها، إلا أنه لم يسهب فى التفاصيل، ولم أعتنِ أنا

بالسؤال، ولقد ذكر الزناتى أيضًا أن آخر المعاقل التى قامت القوات بتطهيرها كان برج الكنيسة، لماذا؟ أيضا لم أسأل، ولكنى أتذكر جيدًا هذا الجانب من حديثه، ومع هذا فمن المسائل التى مازالت غامضة بالنسبة لى من بالضبط الذى قام بتطهير المدينة؟، قوات كتائب المشاة أم قوات الكتيبة المدرعة التى ألحق بها؟، يجب أن أسلم بأن كل هذه التفاصيل على أهميتها ستظل معميات، أسئلة بدون إجابات واضحة، كل ما أستطيع تأكيده بالنسبة لهذه المسائل كلها، أن الكتيبة احتلت موقعها بالمنطقة الشديدة الاتساع لمدينة القنطرة – شرق، وأن الزناتى بعد أن قابله القائد، اندمج فى حياة الكتيبة، ضباطًا وجنودا، وما أسرع ما تخلى عنه إحساس الغربة، وذاب منصهرًا فى الجموع، اكتسب الزناتى ببساطة وعفوية الفلاح القادم من الصعيد حب الجميع، ولم تمضِ الليلة الأولى ويطلع النهار عليه، إلا وكان قد أصبح مندمجًا فى نسيج مجتمعه الجديد، متفاعلاً، نشطًا، مؤثرًا، حقيقة لم يكن هناك ما هو مطلوب منه ليفعله، ولكنه وجد دائمًا ما يفعله، انهمك انهماكًا مع النشاط المحموم الذى اعترى الجميع، الجنود المجهدون المرهقون أيما إرهاق، الذين لم يذوقوا النوم الأيام الثلاثة الأولى سقطوا فى بئر النوم العميق، سعداء جدًا بإنجاز مهامهم، ولكنهم استيقظوا صبيحة اليوم الرابع الذى وصل فيه الزناتى وقد استعادوا لياقتهم، واستيقظت فى أجسادهم الفتيَّة

من جديد شهوة القتال، مستبشرين أحيوا العادات المألوفة لليوم الرمضانى، صام من أفطر، انهمكوا فى إعداد وجبة الإفطار، اغتسلوا وغسلوا، مع كل أذانٍ صلوا جماعة، جرت الأمور مجراها المعتاد، هب الجنود بعد الإفطار بحماس، أجروا للمرة الثانية الصيانة المعلومة للمعدات هذه المرة على مهل، وبمزاج، نظفوا مواسير مدافع الدبابات بعناية واستمتاع، داخل الأبراج أعادوا التتميم على شدة الذخيرة، غسلوا المزاغل، نظفوا التلسكوب، مسحوا البيرسكوبات، زيَّتوا أجزاء ضرب النار للمدفع، أجروا الصيانة المفروضة لأجزاء الرشاش، مسحوا جلد الدواسات الأسود، اختبروا جهاز اللاسلكى، واختبروا عصى القيادة والاتياش، غسلوا المواتير، واختبروا سلامة أجزاء الحركة الميكانيكية، تأكدوا من سلامة أجهزة الجر ولقم الجنازير وعجلة الإدارة، وجلسوا بعدها ينتظرون، كانوا على يقين بأن أمر القتال لم يلبث حتى يصل، يأملون فى استكمال الهجوم مع أول خيط للنور، الزناتى الذى حرص على مشاركة كل أطقم الدبابات، طقمًا بعد طقم، فى بعض ما قاموا به، جلس أيضًا ينتظر مع المنتظرين.

مرت أيام ثلاثة، وهم منتظرون، فى اليوم الأول منها أعاد الجنود ما فعلوه، نظفوا المدافع والرشاشات، اعتنوا بأجهزة الرؤية، وأجهزة ضرب النار، وأجهزة القيادة، وأجهزة نقل الحركة، وأجهزة الجر، وشدة الذخيرة، ثم جلسوا ينتظرون.

لماذا لا نتحرك؟، لماذا نتشبث بالأرض كالقتلى؟، لماذا نحبس فى المرابض ونتخندق كالمشاة، التف الضباط الصغار فى حلقات يتهامسون، ما معنى الراحة التكتيكية المفروضة علينا، المصطلح جديد، نسمعه لأول مرة، لم يرد فى دروس التكتيك التى تعلمناها، قال واحد، لم نحتل غير عشرين كيلو مترا لا تفى بأغراض القتال، قال ثانٍ، الأرض مفتوحة أمامنا بلا موانع، قال ثالث، ولكنهم كانوا على يقين بأن أمر القتال سيصل، ويأملون فى استكمال الهجوم مع أول خيط للنور، وجلس الزناتى معهم ينتظر.

فى اليوم السادس، أذن المؤذن للظهر فصلوا جماعة، للعصر فصلوا جماعة، للمغرب فصلوا وأفطروا، ثم صلوا العشاء وأطالوا فى التراويح، سبحوا واستغفروا، وهبوا، أعادوا صيانة المدافع والرشاشات وأجهزة الحركة والرؤيا والجر واللاسلكى، السماء القاتمة اقتربت كثيرا من الأرض، تجمعوا يقتلهم الانتظار، يمضهم الحنين، يرتعدون من التوتر، ارتفع أذان الفجر. ركبت الشمس ظهر السماء المهيضة.

من بعيد مع أذان الظهر تتردد أصوات الانفجارات المكتومة، مع كل دوى تقفز القلوب خارج الصدور، وترتد، تصرخ الدماء الفائرة، يعلو الصراخ وينخفض، يحتدُّ الغيظ يغلى ويهدأ، تسربت إليهم أنباء معارك الدبابات الطاحنة، تصل إلى أسماعهم، مبتورة، مشوشة، تلهب الغضب، وتؤجج حميتهم،

تشعل شهوتهم المتعاظمة للقتال، الدبابات المتخندقة فى المرابض تزمجر فى غضب كظيم، تمقت شِباك التمويه، والمموهين، انتصبت مدافعها مرتفعة شامخة منعظة متوهجة تحرقها رغبات الغضب، تشتهى اختراق غشاء السكوت السميك، لماذا نحن دون غيرنا ساكتون، الدوى البعيد لليوم السابع يحمل غنج الالتحام، والجنود المحرومون يسمعون، يستثارون، يتلهفون، يتوترون غيرة، اتركونا نموت هنا، لهذا خلقنا.

فى اليوم الثامن، أذن الظهر بصوت واهن، لم يجلجل صوت الجندى المؤذن كالأيام السابقة، ببطء شديد تلكأ الجنود فى إعداد وجبة الإفطار، أذن العصر وهم مطرقون ساهمون مطأطئون، ترددت أصداء خافتة بأخبار سيئة عن ثغرة؟، كيف ونحن هنا موجودون، حاضرون، جاهزون، مستعدون، مشتاقون للموت، يا خلق ياهو، اتركونا نهجم عليهم بسواعدنا، بأسناننا، ننزف دماءنا على هذه الرمال، لهذا أتينا، تحملنا، تكبدنا، لا أحد منا يريد هذه الراحة المفروضة علينا، شربنا الهوان سنوات سبع، كفى لا تتركونا كالأصنام المصلوبة نموت واقفين فى أماكننا.

مزق الصمت دوى هائل، قصفة تلتها قصفة، ثم قصفة، الدوى الهائل دمر الصمت، أشعلت الحماسة نار الحركة، اشتعل الجنود بالفرحة، عدوا قفزوا إلى الدبابات المرتعشة لذة، نزعوا عنها ما يسترها من شباك، تعرت منتشية، لكن الصمت خيم من

جديد، تلاشى صدى الدوى، وخبى، انطفأت ومضة العيون، الحدقات المهانة، تقلب الأرجاء، طائرة، فى أعلى الأعلى خيط كثيف من دخان أسود يمتد وينتشر خلف الجسم المعدنى الفضى، الجسم يهوى ويهوى، ساقطًا من السماء الشاهقة، الجسم المتهاوى يلفظ بيضة سوداء صغيرة فى حجم بيضة الحمامة، ، تتابعها العيون بحرص، تتعقبها باهتمام، بيضة الحمام السوداء تفقس فى الهواء بيضة أخرى سوداء تنسلخ عنها وتنتفخ نصف كرة بيضاء، «براشوت» صاح صوت، العيون تتابع، الأنفاس متهدجة، ترك الجنود دباباتهم وتجمعوا، جماعات، جماعات، الوجوه المحمومة معلقة بالسماء نتابع بتصميم المظلة المتأرجحة، بعنف تزداد دقات القلوب المحترقة، العيون تتسع وتتسع جاحظة، المظلة تترنح تتهادى، تتمايل مع الهواء يمينًا ثم يسارًا، أين ستسقط؟، الأقدام تحفر الأرض بصلابة كعوبها المتوترة، القائد يصيح ولا يكف عن الصياح، إإسروا الطيار، هل صاح حقا، أم سقط الصوت واحتبس فى جوفه أم ضاع وتلاشى الصياح وطنين الصمت منذر؟، المظلة تتهاوى، رويدًا رويدًا تقترب، من أرض الكتيبة، ياللحظ!، الدماء تغلى وتغلى، والمظلة تقترب وتقترب، القائد يصيح أو لا يصيح، الآذان تسمع أولا تسمع، المظلة دخلت المرمى المؤثر للنيران، النيران الكثيفة انطلقت وابلاً من الزخات، زخات الرصاص المتتالية ترشق جسم السماء السوداء التى اقتربت كثيرًا من

الأرض خلال الأيام السابقة، والمظلة تسقط بحمولتها على الأرض، القائد ينسحب خفية لائذًا بمربئسه باستسلام.

لا أحد يعرف من كان صاحب الفكرة، هل كانت فكرة جندى من الجنود، أم هى فكرة مباغته طرأت على رءوس جماعة منهم؟ لا أحد يستطيع تحديد ذلك بدقة، خيم صمت التواطؤ، جماعة من الجنود المتحمسين تكاتفوا وحملوا الجثة، وفى إحدى الحفر البرميلية المحفورة عموديًا للوقاية من الغازات، زرعوا الجثة زرع بصل، وأهالوا التراب، لم تكفِ طول الجثة المدفونة رأسيا، ظلت القدمان المرفوعتان فوق سطح الأرض بارزتين، هل تعمَّد الجنود الطيبون ذلك أم أن الأمر قد حدث صدفة، من يستطيع التكهن؟، كل ما يمكن أن يقال أن الجنود الطيبين الذين دفنوا الجثة عموديًا، لم يكونوا طيبين، كما بدى من الوهلة الأولى، ولم يستمروا طيبين، فما إن انتهوا من الدفن حتى نزع واحد منهم القايش عن وسطه وأخذ يهوى به على القدمين المرفوعتين فى الهواء، إلى أن هدَّه التعب، فأعقبه آخر، ثم آخر، ثم باقى الجماعة، الجنود الآخرون الواقفون على مبعدة وقفوا مبهوتين لم يقدموا على أى فعل، لم يمنعوا زملاءهم، ولم يشاركوهم، استعاذوا بالله من الشيطان الرجيم، استغفروا الله العظيم، وحين تعالى الصوت بأذان المغرب انصرفوا ساكتين.

صباح اليوم التاسع، كان عدد المحاربين الضاربين قد تضاعف، هل تم صدفة أم عن اتفاق، جرى الأمر بهدوء، الجنود

الآخرون المنتظرون لم يستعيذوا ولم يستغفروا، بعد العصر، والزناتى جالس بين لفيف من الضباط، تواترت أخبار أشد سوءاً، الزناتى الذى جلس ساهمًا ينصت، احتقن وجهه بالدماء السوداء، قال المتحدث الوافد: إن قائد اللواء الأول من الفرقة استشهد فى الدقائق الثلاثة الأولى من معركة اللواء، وإن الارتباك قصم ظهر القوات، شحب وجه الزناتى وهو يسأل عن أخبار زملائه: أحمد مختار حراز – استشهد، محمد فؤاد شبانة – استشهد، محمد زكى الرافعى – استشهد، حسن شوقى الجميل – استشهد، صلاح زكى – استشهد.. استشهد.. استشهد، ازداد شحوب وجه الزناتى حتى صار كالبفتة البيضاء وهو يسأل عنى – استشهد، مليًا صمت الزناتى، ومليًا انفجر فى الصراخ: جاى يابوى... جاى يابوى... اندفع خارجًا صارخًا بأعلى صوته.. جاى يابوى.. جاى يابووووى، خرج الجنود عن بكرة أبيهم يستطلعون.. اندفع الضباط الصغار والكبار ينظرون، مشى الزناتى ومشى، شق قميص سترته، ومشى يدبدب الأرض بقدميه ومشى، ولا يكف عن الصراخ جاى يابووووى، قادته قدماه إلى القدمين المرفوعتين فى الهواء، وبكل ما أوتى من قوة انهال بالعصا ضربا، حتى هدت قواه فاقتعد الأرض خائرا، الجنود الذين ينظرون عن كثب انتظمت صفوفهم فى صمت، وفى صمت انتظمت الصفوف صفًا واحداً يتجه مقتربًا من الزناتى المنهار على الأرض، ومن القدمين

المرفوعتين فى الهواء، فرد بعد فرد يمسك العصا وينهال، يهده التعب، ويخلى مكانه للزميل الذى يليه والذى يليه.. ثم الذى يليه ويليه.

انتهى الزناتى من رواية أحداث الحرب التى خاضها، عندما كنا نتسلم خطابات العودة إلى أعمالنا، أمام الباب الخارجى شدَّ كل منا على يد أخيه، احتضن كل منا الآخر بحب شديد، استدرنا ومضى كل منا فى طريقه.

كانت هذه اللحظة، التى خرجنا فيها من قاعة الأقدار ثم افترقنا عند الباب الخارجى للإدارة على طريق صلاح سالم، هى آخر مرة أرى فيها صديقى العزيز الزناتى عبد الحليم على، فلم نتلاقى بعدها، ولم أتصل به، ولم يتصل بى.

شجون و آلام الملك سليمان



لست من رواد الملاهى الليلية، ولكننى دعيت، ذهبت عازفًا عن الذهاب، لم يدر لى ببالٍ أننى سأقابله بعد كل هذه السنوات، ولكنى وجدته أمامى، عرفته ما أن رأيته، الملك، أمام صفوف العازفين يتألق فى الردنجوت الأسود، بطوله السامق، وجسده النحيف الجاف، وبشرته الداكنة، يتغير لونها تحت الأضواء الخاطفة متبدلة الألوان، يمسك الترمبون بوله عاشق صاعدًا هابطًا متمايلاً بانسجام، ذائبًا فى الإيقاعات الشادية للموسيقى الصاخبة.

ضمنى إعتام الصالة، الضوء النعسان شديد الخفوت والنعومة، تسرى عيونى خلال عتمة الأنوار الشاحبة، تتلصص على حياء، تبحث عن السيقان المتعرية محمومة الأفخاذ تحت

الأذيال المتطايرة فى صخب الموسيقى الراقصة، تفتش عن النهود المندلعة التى تتوثب فتنة مع الرجرجات الشجية للأرداف، تلك التى حدثنا عنها الملك فى الليالى القاحلة التى جمعتنا، فأثارت كوامن الشهوات، لم أجد الفتنة التى خلبت الخيال، هل كان يكذب علينا مختلقًا طرائفه ليسرِّى عن أرواحنا المحرومة ويرضى أشواقنا المترملة فى تلك الأيام.

تلك الأيام!!، فى خفوت النور المعتم للمصباح الإنجليزى الذى يفشل دائمًا فى تبديد ظلمة ملجأ الإيواء، حيث أقيم، تبسمت مودعًا عم سليمان، قال بغبطة: ليس عندى من هو أغلى منك لأهديه الصندوق!، سقطت داخلى فزعًا متطيرًا، أدارى الخوف بالامتنان، عبرت عن شكرى المرتعد فرقًا، فعبس متألمًا آسفًا، عطرت الذكرى خيالى المضطرب، وجعلتنى أتبسم فى الخفاء.

فى تلك الأيام، كان الجنود يتجنبون الحديث عن عم سليمان، ويتحاشون الاقتراب من مكان إيوائه، فإذا اضطروا اضطرارًا أطلقوا عليه وجماعته «الحانوتية»، تسقط عن ألسنتهم بسرعة المتهيب، المتطير وجلاً ورهبة، ويشيرون إلى المكان بتعبير مقتضب أسود، «ملجأ الموتى»، لم يبالغ الجنود فى شعورهم بالخوف، فالمكان بالفعل يبدو جهمًا كئيبًا شديد الوحشة، الصناديق حائلة السواد الملقاة على جانبى المدخل، كانت سببًا كافيًا لإثارة الانقباض، كان الجنود يعرفون أنها تنقل الموتى

الآن بعد أن كانت مخصصة لنقل الجراية، وهذا فى حد ذاته كان سببًا كافيًا جدًا للشعور بالنفور، والابتعاد عن بيت الموتى وصاحبه، كان الرجل قائد جماعة دفن الموتى، وعدَّ ذلك أيضًا سببًا جوهريًا لمقاطعته، عاش بيننا مدة طويلة فى عزلة فرضت عليه دون رغبة منه. لم يتعامل مع عم سليمان غيرى، حتمت ظروف العمل تعاونى معه، فتعاملت مكرهًا، لم تربط الصداقة فى البداية بيننا، بينى وبين ملازم الشرف سليمان أو عم سليمان، كما درجنا على مناداته، إن اضطررنا، توقيرًا لشيخوخته الكاذبة، فهو أصغر بكثير من هيئته، من الكهولة المبكرة التى تبدو عليه، لم يكن ليتجاوز الأربعين.

هبط الرجل ليلاً علينا، فى مأوى القائد، جلست، دفع الباب ودخل، وافدًا من كوكب غريب ينأى كثيرًا عن عالمنا، أدى التحية، بوغتنا بانتصابه أمامنا، للوهلة الأولى، أثارت طلعته المباغتة شيئًا غامضًا فى نفوسنا، قبل أن يتكلم شعرنا بالتهيب، لم نكن لنعرف حتى لماذا جاء؟ وماذا يطلب؟ ولا ما هى المهمة المكلف بها؟ لم نألف من قبل ذلك الطول السامق المفرط فى الطول، الجسد المقدد النحيف، البشرة الأسوانية الداكنة، جحوظ العينين الملفت، كان عم سليمان دميمًا تلك الدمامة الوسيمة التى تفرض حضورها القوى على النفس، استقبلناه بحذر، وعندما عرَّفنا الرجل بمهمته شعرنا بالنفور، قال القائد: «اهتم به، رتب أمور إقامته، ذلِّل له الصعاب، أنت مسئول عن

معيشته»، قلت لنفسى: «أنت يا من شهد الجميع بشجاعته هل سترهب الأشباح»؟، تابع القائد، من المؤلم النظر إلى الخلف، وتعيس من ينبش التراب، لكن للضرورة أحكام، همست فى نفسى: «تبرير مناسب، ومهمة كريهة، ولابد من الانصياع»، من اللحظة الأولى أصبحت مسئولاً عن الرجل، لم أعطه صداقتى، وأعطانى كل مشاعر الولاء، كلما اشتدت جفوة الزملاء وابتعادهم عنه، كلما ازداد التصاقًا بوجودى، كنت أشفق على محنته التى صنعناها بازدرائنا، وكان كثير الاشتكاء، كان عملى الوحيد ألا أضجر منه، ومن شكاواه، أفسح فى صدرى متسعًا يلقى فيه بهمومه، وكان كثير الهموم لا يكف عن التألم والتشكى.

أشرقت الأنوار، صمتت الموسيقى، دوى التصفيق، انحنت القامة السامقة الداكنة السمرة تحيى اللاهثين، صفقت طويلاً مع المصفقين، بإعجاب، ولم أكن قد تمتعت بالموسيقى، انسحب الملك والعازفون من الحلبة، ليس من المعتاد إقامة أفراح بالكباريهات، أى أناس هم؟، دارت عيونى تستطلع الأرجاء حولى، تبحث عن فاتنات الليالى، عن الغيد، والهيف، بقدهن الممشوق، والشعر المرسل، والعيون النواعس، والدعجاء، والخصور اللطيفة الخمصاء، النهود الفائرة، تأكدت متحسراً من صدق الانطباع الأول، أين ذهبت جميلات المملكة؟، أين ساحراتك يا ملك؟، النساء حولى نقيض ما وصفت، القدود منبعجة والسيقان مقوسة، والأقدام ثقيلة تنوء بما تحمل من كتل

اللحم والشحم المكدسة بغير تناسق، والأرداف ثقيلة باهظة انفلتت من تناغم التكوير، محشورة بلا معنى فى ثياب السهرة الفخيمة ذات الألوان الصارخة، نابية الذوق، كيف تبدل الحال يا ملك إن كنت قد صدقت، غالبية الحاضرين دعيت إلى الفرح مثلى، والباقون لا يختلفون فى هيئتهم وسلوكهم عنهم، المناضد مشغولة بزجاجات الويسكى الفاخر، زجاجات زجاجات من كل نوع وصنف، يزاحم الفارغ الممتلىء على حيز المناضد المتسع، بذخ غير محسوب، الرجال والنساء يشربون، يرفعون القنينات إلى أفواههم طويلاً ويجرعون، يتجرعون، كما لو كانوا يعبون زجاجات مياه معدنية فى قيظ حارق، على جرعات ثلاث يفرغون ما فى جوف الزجاجات فى أجوافهم، والكئوس النظيفة تنعى مزاج الشاربين، على مهل تبدأ الأضواء فى الخفوت، أم العروس البدينة التى أجهزت على زجاجة ويسكى كاملة تخلَّت عن وقارها، اقتحمت حلبة الرقص التى بدأت تشتعل بالأضواء، تشدو الموسيقى وتصدح وهى تترنح، فى محاولة بائسة للتمايل، وهز الأعطاف، أخذتها نشوة السكر العاجل فأماطت الطرحة عن رأسها، كشفت عن شعرها الخشن المتجعد، تتحرش بالرجال، أدركوها، قبضوا على ذراعيها، كتفوا معصميها خلف ظهرها، تحاول أن تتملص، تندفع برأسها وكتفيها للأمام، تمد الرأس تنهش اليمين مرة، ومرة تنهش الشمال، تكشف عن نواجذها وهى تلتهم الهواء، تفترس الذكور متشدقة متلمظة

باستمتاع.. الموسيقى التى بدأت هادئة تصرخ، والملك يرفع «الترمبون» لأعلى غير ملتفت لما يدور حوله، كما لو كان يعزف لنفسه، مستمتعًا أيما استمتاع. رويدًا رويدًا تفرَّد باهتمامى وأنا أجلس فى إعتام الصالة، حتى لم أعد أرى سواه.

– أى ذنب جنيته حتى تنفروا منى، تبتعدوا عنى، أنتم تضطهدوننى.

– لا أحد يمكنه أن ينفر من شخصك يا عم سليمان، أنت رجل قدير وطيب تحظى بكل احترام، قليلون هم من ينفرون من مهنتك.

– وحتى هذه ما ذنبى؟، ليست مهنتى، أنا العازف الأول، المايسترو منقطع النظير، لا مثل لى بغير غرور، موسيقات الجيش تشهد ببراعتى، لا يمكنهم الاستغناء عنى فى الاستعراضات الكبرى، أنا الوحيد الذى لا يخذلهم أمام كبار القادة، أرفع عاليًا رءوسهم، عندما نشبت الحرب كنا ندعو الله ألا نكلف بما نعرف أننا سنكلف به، نتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعنا حتى لا نقوم بهذا العمل البغيض، وقعت المصيبة على رأسنا كما كنا نعلم، هل تتخيل محنتنا، ضع نفسك مكانى، مع العزف إلى دفن الموتى، لا يوجد أتعس من هذا المصير، أفهم أن تنفروا من المهنة، فنحن قد نفرنا منها قبل أن نقوم بها، جميعنا يبغضها، ولكن لماذا يتحول النفور من المهنة إلى نفور من شخص. لماذا تبتعدون عنى وتعزلوننى، ألا يعد ذلك

اضطهاداً فى نظرك؟.

– تبالغ كثيراً فى حساسيتك، أؤكد أننا نقدرك كل التقدير، لا يجرؤ أحد على اضطهادك.

– لا.. لست أبالغ، لا تنكر، أنت تؤيد بإنكارك شعورى بالامتهان، أنتم لا تنفرون منى فحسب، بل تشمئزون، حتى أنت، أعتقد تماماً أنك تغسل يديك بالماء والصابون بعد انصرافى.

حقيقة كنت أفعل ذلك، فقلت مجاملاً: لست الوحيد الذى يتعامل مع الموت، كلنا يتعامل مع الموت بطريقة أو أخرى، هذه هى الحرب.

حدجنى بصمت مفزع، وانفجر متحدثاً بلا توقف:

– ماذا تعرفون عن الموت، صدقنى أنتم لا تعرفون شيئاً!!، أياديكم نظيفة لا تتلوث، ثيابكم لا تتلطخ بالدنس، لا أحد يتعامل مع الموت مثلى، نعم، أنتم تقتلون وقد تقتلون، ولكن ماذا يعنى الموت بالنسبة لكم، فى بروجكم الحديدية تتطلعون من خصاص المزاغل، تضعون الغرماء على شاشات التلسكوب أهدافاً، بحذق تقدرون المسافة، تنشّنون، تضغطون بالإبهام على زر حديدى، مجرد ضغطة بسيطة على زر، تندفع الدانة منطلقة، يعصف الدوى بآذانكم برهة قصيرة، قد تشتكون بعدها من الطنين، وربما تحتك بأجسامكم كتلة المدفع المرتدة فى الاتجاه المعاكس، مجرد احتكاك، ربما شممتم رائحة البارود وتأذت أنوفكم وهلة، وقد تتأثرون من الوهج الخاطف، وعلى مبعدة كيلو

مترات قليلة من أماكنكم تنفجر الطلقة شديدة الانفجار، تمامًا تعرفون تأثيرها القاتل، ومداها، دون أن تبارحوا أبراجكم، تغتبطون عندما ترون بأجهزة الرؤية وعلى عدساتكم الهدف وهو يحترق، فرحين بإجادة التصويب، منتشين بالظفر، لكنكم لا ترون قتلى، لا تسمعون صرخات مصابين، لم تتأذَ مشاعركم بعوائهم، لم تختبروا قوى احتمالكم حين ترون الأجساد وقد تناثرت أشلاء صغيرة، الدماء وهى تتفجر، وتتخثر، وتختلط، وتتشربها الرمال، كيف تخترق الدروع الحديدية السميكة، وتتزلزل بالانفجار، وتتحول إلى جحيم نار، يصهر الحديد واللحم فى عجين واحد متماسك، نعم.. أنتم بالقطع تعرفون ذلك معرفة جيدة، مجرد معرفة لم تتعايشوا مع ويلاتها، لا تعيشون لحظاتها إلا عندما تكونون أنتم الأهداف، الفريسة وليس الصياد، ميزتكم فى الحقيقة أنكم صيادون وفرائس فى نفس الوقت، وياله من عزاء طيب للنفس، يحفز إصراركم على القتال، إن لم تقتل ستقتل، ألهذا لا تنتبهون إلى الدمار الذى تسببونه والذى يعصف بدوره بكم؟، فى النهاية تحملكم الجنازير بعيدًا عن كل هذه المخلفات، مخلفاتكم ومخلفات أعدائكم، تتركونها لى، قدرى غير قدركم، حقًا أنا أتعامل مع الموت ولكن ليس على غراركم، أنا أتعامل مع الموت القح، أنا لا أقتل، أنا أتعامل مع الأشلاء، ألملم عقل الأصابع، ألتقط مقل العيون، أفتش عن الأسنان المتناثرة، أجمع هلاميات الأمخاخ اللزجة بأنصاف الرءوس

المشجوجة، أدس أحشاء البطن المبقور فى البطن المبقور، أضع الساق المبتورة بجوار الساق التى لم تبتر، أضم الذراع المقطوعة للجسد إذا كان ثمة من جسد، هل تخيلت كل ذلك؟! الموت عندى مفضوح، سافر الوجه، سافل بلا ضمير، وغد آثم، جرِّب إخلاء جثة متفحمة من مدرعة مدمرة، جرِّب انتشال جثة محشورة من بين فكى الصلب المتهرئ، جرِّب أن تنزع سليخة جلد ملتصقة بالحديد المحترق، حاول ذلك وضميرك يوعز إليك ألا تتركها وتمضى، فهى تعنى الكثير، تعنى إنسانًا كاملاً قد كان، وعليك أن تواريه التراب، لا أحد منكم، شاهد جنودى وهم ينتشرون على اتساع ساحة المعركة انتشار الأنفار فى حقول القطن، يجمعون اللطخ بصبر وأناة وإحساس فائق بالمرارة والفزع، ينحنون وينتصبون يجمعون فى الأكياس القذرة مخلفات الصرعى، أنتم لا تعرفون أشياء كثيرة كالتى عرفناها، أعرف كيف يكون ملمس الأشلاء الممزقة برائحتها العفنة المقرفة، كثافة الدم المتجلط على الرمال، لون الأمعاء، عفونة براز الجوف المندلق، رائحة السوائل والعصارات، صلابة العظام، البرودة القاتلة فى جمود العيون، الموت عندى ليس الموت عندكم.. جربوا التعامل معه قبل أن تنفروا منى.

– هذه هى الحرب يا عم سليمان..

– نعم.. هذه هى الحرب، كم أتمنى لو كنت مثلكم، أجد العزاء الذى تجدونه، لا أطمع فى شىء إلا أن أحارب، أخضع

لنفس القانون الذى تخضون له، أقتل أو أقتل، أطمع أن أنال حظوة القصاص مثلكم، كما ترى أنا لا أحارب، أنا أدفن الموتى.

– أليس هذا عمل من أعمال الحرب فى نظرك؟ أنت تحارب بلا شك.

– لا .. أنا لا أحارب، ليس لى أعداء، أنت لا تفهمنى، أنا أدفن الموتى، كل الموتى بلا تفرقة.

– حتى موتى الأعداء؟

– حتى موتى الأعداء، وبنفس التفانى، الموتى ليس لهم وطن، والجثة لا تحمل جنسية، أنت لا تستطيع أن تكره جثة، أنت لن تستطيع إلا أن تشفق على نفسك فى الجنس الذى ينتمى إليه جميع الأموات.. الإنسان.

هممت يومها بأن أغسل يدى بالماء والصابون بعد انصراف عم سليمان، ولكننى عن غير قصد تراجعت. من هذا الرجل الذى خاطبنى واستمعت لشكواه بهيئته الزرية، ولونه المغبر المعتم، بشفاهه الجافة اليابسة، وأسنانه التى تهرتمت وتساقطت هولاً فى عدة أيام، أشفقت عليه، وأشفقت على نفسى، لم تكن الحياة بالنسبة لنا هينة أيضا، لم تنته الحرب بإعلان وقف إطلاق النار، وجدنا أنفسنا منهمكين فى تحويل الأيام الساكنة إلى شواظ من نار، التف القيد الملتهب حول الثغرة، عندما توقفنا عن إطلاق النار، شحذنا الخناجر، الرجال المتسللون فرادى فى سواد

الليل يعودون غالبًا قبل طلوع النهار، يسلمون الآذان المصلومة، كل زوج بعشرة قروش ورقية ممهورة بتوقيع القائد، يحتفظون بالغنائم فى برطمانات زجاجية صغيرة مليئة بالمحاليل، هل عرف الرجال بخناجرهم المسنونة ما عاناه عم سليمان؟، فلم يعودوا ينفرون منه، ربما، من المؤكد أن مشاعر النفور من الرجل بدأت فى الخفوت، وربما كان هناك سبب آخر، وسط خضم القسوة العاتية، استردت الحياة عنفوانها، تدفق الحنين على استحياء، يملأ بالتدريج فرا غ القلوب، حاصرتنا الحرب فنسينا متعة الوجود، وهلت البشائر فحلقت الروح منتشية بالمتع الغامضة المرتقبة، وتسرسبت مع قطرات الماء المتوثبة سخونة الشهوات. خلال تلك الأيام بدأت الصداقة تتوطد بيننا وبين عم سليمان، تفتت حاجز النفور بالتدريج، شاركنا لحظات السمر القليلة التى نتخطفها خطفًا من عالم العناء، وخلب الألباب بطرائف الطرب، كشف لنا القناع عن وجهه الليلى، مايسترو الأنغام، قال لنا الموسيقى سحر الليالى الشجى، والسحر الذى نعرفه لا يكتمل إلا بأريج النساء العبق، قال مزهوا: «الموسيقى والليل والنساء مملكة واحدة مبهرة، وأنا الملك، الموسيقيون يحملون دائمًا مفاتيح الجنة»، خرج الملك من شرنقة العزلة المضروبة عليه فراشة خلابة الألوان، استولت على أسماعنا وأبصارنا، قص علينا وأسهب فى التفاصيل الصغيرة كما نهوى، لم نكن نصدقه، ولكننا كنا دائمًا ملهوفين

للاستماع.

أتململ فى مكانى، أنتظر أن يلتفت، يغمره الضوء، وتخفينى العتمة، أترقب اللحظة التى تجمع العين بالعين، فى صفوف العازفين الجالسين التقطته عينى، متلاشيًا بينهم، أنت هنا أيضًا تتبع الملك، كما كنت هناك تابعًا، يمسك الترمبون وتمسك الطبلة، أعرفك تماما، فمك منزوع الأسنان، لسانك ألثغ، تنطق ببطء، تهرب منك حروف الألفاظ ولا تجدها، قامتك قصيرة، وكرشك عظيم، غمرتنى أمواج المحبة فتمنيت جالسًا أن أتلقاه هو الآخر بأحضانى، العجوز، اسمه العجوز، لا يمكن أن أنسى، مساعد الملك، وأحبَّ بطانته إليه، الرجل الذى اختصه بعدى بصندوقه العزيز حين رفضته، أما زالا يحتفظان بالصندوقين، أسقطت من فمى ابتسامة مرة، فتبخرت فى العتمة حولى، الصندوقان.

كان حدثًا مثيرًا، زيارة القائد لملجأ الموتى، اصطحبنى متعجلاً أمرًا، قلت لنفسى لابد أن هناك من الأمور الجسام، ما يحمل القائد على تجشم المكابدة، وإلا فلماذا العجلة، المعتاد أن يستدعيه، فرح الملك بالزيارة الغريبة غير المتوقعة، أفسح مكانًا للقائد، مبالغًا فى الاحتفاء والترحيب، أقسم ثلاثًا على تقديم فنجان من القهوة من صنع يده، غصب القائد نفسه على القبول، زاهدًا فيما يقدم إليه وما لن يقدم، يشد عينيه شداً حتى لا تلتفت حوله، أكياس النايلون المستطيلة، الفئوس، المعاول،

الكبيرة والصغيرة، الجواريف اليدوية، الأشرطة والأحزمة المتنوعة الأشكال والأحجام، لفافات القطن الطبى، زجاجات المحاليل الكيماوية، ثم كومة الساعات والخواتم والدبل الذهبية، وعلامات الميدان المعدنية الصغيرة، مخلفات لرجال لم تعد لهم بكل الأشياء حاجة.

– مهمتك خطيرة هذه المرة.

– فرصتى لأتقدم الصفوف وأواجه العدو.

نظر القائد إليه متعجبًا «أية مواجهة يعنى»؟، وأضاف: المهمة تفرض الحرص، كل الحرص، والدقة الدقة فى الأداء والتصرف.

– سأقوم بها بكل كفاءة.

قال القائد محذرًا: القيادة العليا تهتم وتتابع.

– سأبذل الجهد الجهيد، كم جثة سأبادل؟

– مصريين!

– وجثثهم؟

– تملأ المقابر، يكفى خمس أو ست، ما استطعت، ليست المرة الأولى والأخيرة.

تلكأت بعد انصراف القائد، وقفت على مبعدة، أتابع الملك وقد جمع حاشيته.

أرقب وجهه، وقد تألق بحماس مغابط.

– أمامنا فرصة العمر سانحة، لكن العمل حساس وشاق.

– كم حتة؟

– حتتان مصرى.

– والأخرى؟

– خمس أو ست حتت قديمة لحسن الحظ.

– حمدًا لله أنها قد تحللت، متى؟

– نبدأ العمل على الفور.

قلت فى نفسى مهما بلغت غرابة الحياة وقسوتها، ما أسرع ما نتأقلم مع الألم، ونتكيف مع الغرابة، ونعتاد المعاناة، نتبلد، بالتكرار تفقد الأحداث بكارتها، وقف الملك ساهمًا، مستغرقًا فى التفكير، أخرج الرجال الفئوس والمعاول والأحزمة والأكياس وزجاجات المحاليل ولفائف القطن، ووضعوها على ظهر الناقلة، عقد الملك ذراعيه خلف ظهره، وأطرق إلى الأرض متصلبا، حمل الرجال الصناديق الملقاة على جانبى المأوى، صندوقًا من بعد صندوق، ووضعوها على ظهر الناقلة، الملك مستغرق صامت يفكر، أفاق آمرًا الرجال بإرجاع الصناديق إلى مكانها على الأرض، مشى بضع خطوات مترددا، والرجال يعيدون الصناديق، شغلنى الأمر، ماذا يدبر الملك، على غير عادته التى أعرفها عن ظهر قلب يتصرف، ماذا ينتوى، على أى أمر عقد العزم، لماذا يتلكأ فى تنفيذ الأوامر، الملك المطرق الرأس، استعاد قسمات وجهه الهادئة، تجلى الإصرار فى نبرات صوته وهو يأمر حاشيته المتعجبة من أمره، بأن يعيدوا الصناديق إلى

ظهر الناقلة، ويركبوا، أعادوها وركبوا، صعد إلى جوار السائق، وانطلقوا.

حين عاد فى المساء كان باشًا، باسمًا، مغتبطًا، على غير المعهود فى رجوعه من أداء مهامه، بادرنى: يوم عمل مجهد.

– على غير العادة أراك سعيدًا.

– سعيد جدًا.. جدًا جدًا.

تابع: انطلقت تتقدمنى سيارة قوات الطوارئ بعلمها الأزرق الخفاق، استقبلوا صناديقى استقبالاً رائعًا، رجال الدين بذقونهم الكثة المشعثة يحملون مجامرهم، يتمتمون بتلاوات سريعة من الكتب الصغيرة بأيديهم، صفان من جنود الشرف، تمت المبادلة، استلمت الشهيدين داخل صندوقين، وسلمت صناديقى الخمسة، ألقيت نظرة إلى الصندوقين، تمالكت نفسى، كاتمًا مشاعر الضيق والألم، وألقوا نظرات إلى الصناديق الخمسة، وعدت تشيعنى نظراتهم الغاضبة، أظن أنه لولا وجود قوات الطوارئ لقتلونى..

– لماذا؟

ضحك بجذل، منتفخًا ثقة وزهوًا، لم يتكلم، ولم يخفِ إمارات المداراة، ترك لى التكهن بما فعل، دون أن يصرح، «إنها قصة أخرى يا صديقى، ومن القصص ما يحسن مداراته بالسكوت».

تكررت المهام الخطيرة خلال الأيام القليلة التالية، يذهب الملك محمومًا بالحماس، يعود متوثبًا غبطة وسرورا، قامته التى

انحنت اعتدلت، وجهه المغبر المعتم أشرق بألق الصبى، جسده النحيف ترعرع، فى أوج الهناء الطارئ، وذروة السعادة التى بلغها، وصلت إشارة مقتضبة بعودته للقاهرة بصفة عاجلة دون إرجاء، انتهت الحرب بالنسبة للملك، بوغت وبوغتنا، سألت نفسى هل يتعلق الأمر بأسباب السعادة الغامرة الطارئة عليه؟ من يعرف؟ قال الملك وهو يودعنى، ثاويت الشهيدين الثرى واتخذت من أحد الصندوقين ذكرى، دولابًا لملابسى، ليس عندى من هو أعز منك لأهديه الصندوق، وعرفت بعد سفره أن الصندوق آل إلى العجوز، أقرب مساعديه إلى نفسه.

خلف الملك المتمايل بالترمبون صاعدًا هابطًا، ينهمك العجوز بالنقر على الطبل، رغم عتمة الصالة التقت العين بالعينين، ابتسم العجوز، واحتضننى الملك ببشاشته، أشرقت الأضواء وانحنى الملك بهامته لجمهور المصفقين، وانفلت مسرعًا لمائدتى.

– أين فاتنات لياليك الساحرة يا ملك؟.

– تغيرت الأحوال، فتبدلت الليالى، واحتل المملكة رعايا جدد.

– أثرياء الحرب...

– لا. أثرياء السلام، الزمن الجميل ولَّى، وأنا أعزف لنفسى فى الوقت الضائع، لا أنظر حولى حتى لا أتوقف عن العزف، يبدو لى أن كل شىء عبث، تعيس بلا حدود، تعاسة دفن الموتى فى نظرى أصبحت مبهجة.

– قلت أغالطه: يخيل لى أنك كنت سعيداً بالمهنة فى تلك الأيام.

– أصبح للعمل متعته مع بداية مهام التبادل.

– تقصد منذ يوم الصندوقين؟

هز رأسه آسفًا: كلما تذكرت ذلك، كلما تذكرت استخدامى الصندوقين لحفظ ثيابى، أشعر بالخوف من نفسى، تصور، لقد تخليت عن ملابسى التى احتفظت بها داخل الصندوق، ما إن وطأت أقدامى أرض القاهرة، كان معك الحق فى الاعتذار عن قبول هديتى، مكثت شهراً أشمئز من تناول الطعام بيدى.

– أسرار سعادتك تثير فضولى إلى الآن، لا شىء أتمناه إلا أن أعرف ماذا فعلت.

– بسيطة قصتى وليست مثيرة، بعد تلقى الأوامر عصفت برأسى أفكار مجنونة، راودتنى عن نفسى، ترددت، وسوس شيطان الجنون، قاومت، ألحَّ الوسواس الخناس فأذعنت، منقلباً على نفسى، قلت يا سليمان ليس من المنطق أن توقر عدوك، وتتجاوب مع رغباته، أنت هذه المرة يا سليمان لا تتعامل مع القتلى، أنت تواجه الأحياء، فهل تذعن لرغباتهم، من الجبن يا سليمان أن ترضخ وتنصاع، فكر فى الأمر جيدا، وإلا ندمت على الفرصة إن أهدرتها طول عمرك، أنْ يا سليمان قد واتتك فرصة القصاص كما تمنيت فلا تكونن من المتخاذلين، اقتص ولا تتردد، وإلا ضعت وأضعتنى معك، أطلقنى من زنزانة إحساسك

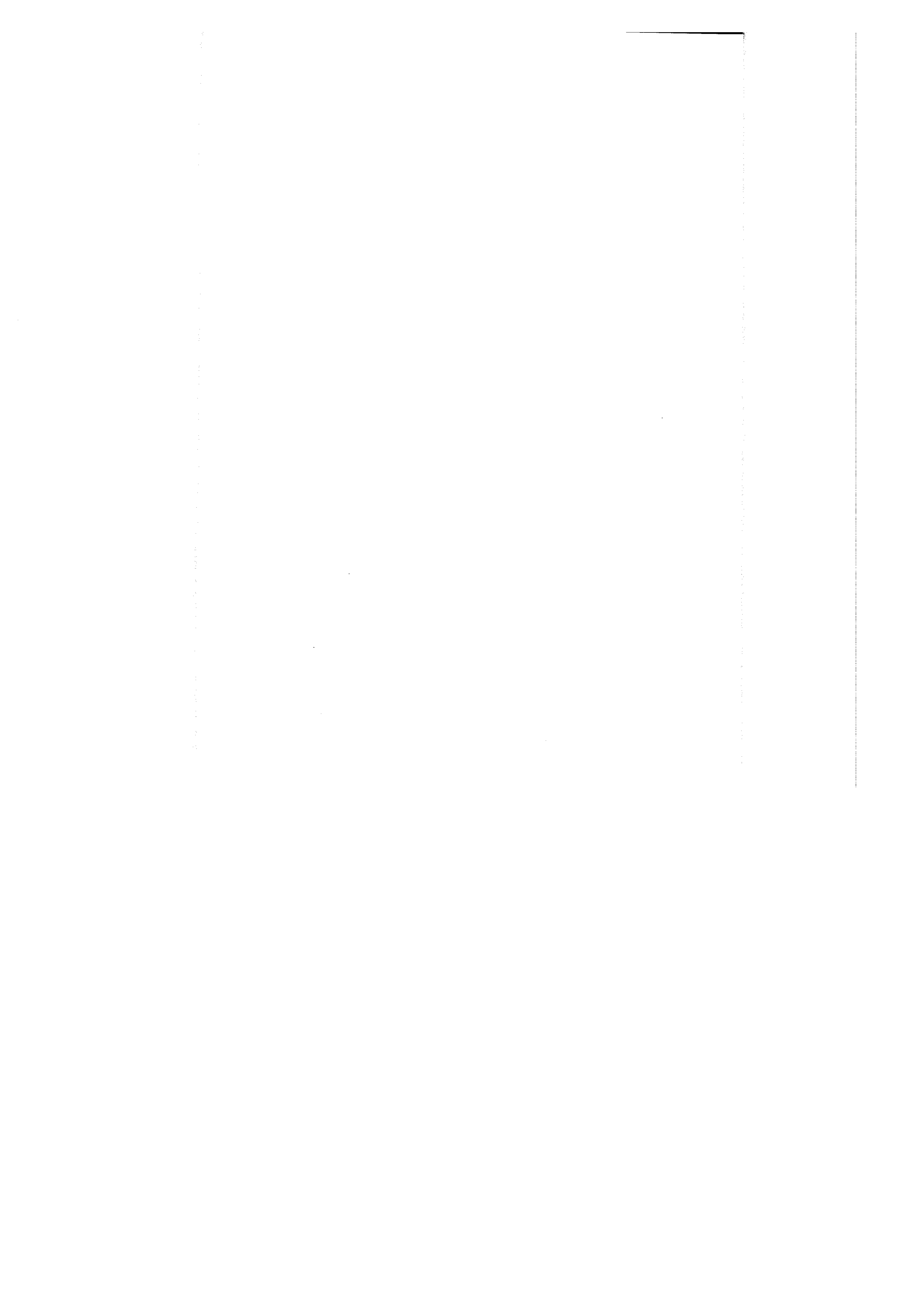
بالمفروض، دعنى أتنفس الحياة التى أهفو إليها، ثم ليحدث ما يحدث، لكن ما العمل المناسب الذى تراه يا ملك؟، استعرضت ما خطر ببالى، حسبت حسبتى بتؤدة، وعقدت عزمى، «ليس فى الإمكان يا سليمان إلا ما تنتوى فعله، افعله واهدأ وطب نفسًا، لك من الخبرة ما يكفى، تعلمت من الحياة القاسية دراية قاسية، فاقدم على ما انتويت، بقلب جسور، وصدر منشرح»، هدأت، واقتنعت، وأقدمت.

عند عملية التبادل وقفت شامخًا، متحديًا، مترعًا بالثقة، أهزأ فى سرى من استبشارهم، بصناديقى الخمسة، ساخرًا من إحساسهم بأنهم الطرف الغانم، فى مقايضة الخمسة بالصندوقين، «أنتم لا تعلمون بالمفاجأة التى أعددتها لكم»، رجال الدين بمجامرهم يحوقلون، وخلفى يقف الإمام بأفروله ومسبحته مبسملا، ما إن تفقدوا الصناديق الخمسة حتى تأججت صدورهم بغضب هائل، كبحوا جماح السخط، شراسة القتل تقدحها العيون، نظرت إليهم بتحدٍ، قلت لنفسى يا سليمان لا تكره أعداءك ولا تحبهم، قاتلهم فقط، قاتلهم بكل ما تملك، بكل الأسلحة التى تتوفر لديك، مع كل تبادل يزداد اشتعال الغيظ القاتل بصدورهم، ويزداد شعورى بالفخر، هل كان ذلك سببًا وراء الاستغناء السريع عنى، وعودتى للقاهرة، ربما.

– كلى فضول لأعرف ماذا فعلت بدقة، تابع حديثك لا تتوقف..

ذرَّ عينيه حتى لا تبوح، أطبق شفتيه حتى لا تتكلم، هزَّ رأسه كمن يتساءل ما الذى تفعله الحرب بنا، أية مخلوقات غريبة نطلقها خارج جلودنا، بدأت الأضواء فى الخفوت، هيأت له فرصة مواتية للفرار من الإجابة، انفلت من أمامى واثبًا برشاقة إلى حلبة الرقص، ولم يلبث الملك حتى تمايل تحت الأضواء، صاعدًا هابطًا مع الترمبون الصادح، وخلفه كالعادة جلس العجوز بفمه الأهتم، ينقر الطبل.

قفص القرود



لم أجد طروبًا، هبطت درجات السلم الرملى المتهدمة فى الظلام، وأنا أكاد أرى شبح جندى الحراسة وهو يعدو نحوى، فتحت بالمفتاح القفل الصدىء للباب الخشبى القديم، دون أن أنتظره، كنت مرهقًا، وكما تعودت عالجت الرزة الخشنة، ودفعت الباب المترنح بقوة محسوبة، على الضوء المتهادى للمصباح الإنجليزى الذى يشعله الجندى قبل مجيئى، شعرت وأنا أنظر لفراشى فى ركن المأوى الحديدى، بأن هناك من عبث بالأغطية الصوفية السوداء، لم أهتم، ليس فى قفص القرود كما نسمى المأوى الذى نعيش فيه – بباطن الأرض – أى شىء يستحق أن تخاف عليه، جلست على طرف الفراش، أخلع حذائى الثقيل، أحرك أصابع قدمى لتنعم بالحرية، واستلقيت بظهرى وأنا

جالس، أمدد جسدى المهدود لبرهة قصيرة، واعتدلت مستعيداً نشاطى، عندها تذكرتها، فتشت عيونى عنها، لم أجدها، لم يخامرنى الشك حتى ذلك الحين، واثقًا من ظهورها فى أية لحظة، فمن المستحيل أن تذهب إلى أى مكان آخر.

خلعت ملابسى وفى الحمام الضيق انساب الماء الساخن ينظف متاعب جسدى، يزيل مشقة يوم حافل بعمل دءوب ككل يوم، والحمام والماء الساخن فى الحقيقة ميزتان يتميز بهما قفص القرود الذى أعيش فيه، دون سائر أقفاص القرود التى يعيش بها زملائى، من القادة الأصاغر كما يطلقون علينا، ولم يكن الحمام والماء الساخن هما الميزتان الوحيدتان، فللحمام الضيق باب خشبى من الأبلكاش، يمكن أن تغلقه، وهى ميزة كبرى، تزيد من متعة الحموم، دون أن توترك نظرات من يصب عليك الماء كما يحدث لغيرى، أغرت هذه المميزات باقى الرفاق، ففضلوا مشاركتى حمامى، بدعوة أو بغيرها، موجود أو غير موجود، يحملون ملابسهم ويأتون، يطرقون الباب ويدخلون، وفى غيابى يفتح لهم الجندى الباب، فيستحمون، وينصرفون هانئين غير شاكرين، فلا يوجد شىء واحد يمكن أن يكون لأحد دون الآخر، فخارج الملابس الكاكية التى تغطى أجسادنا لا يوجد أى شىء يمكن أن يكون ملكى أو ملكك، أمر واحد يثير ضيقى منهم، حين أرقبهم وهم يديمون النظر بعيون تلتهب بالشراهة والحنين إلى جسد طروب المثير، بخصرها الدقيق وقوامها الممشوق

وفخذيها الممتلئتين، وصدرها الناهد القوى المشدود كجمرتين كبيرتين من جمرات الجحيم، لم أعذر أيًا منهم وهى الأنثى الوحيدة الموجودة داخل المنطقة الكالحة التى تحتلها الكتيبة، ويعيش فيها مئات الرجال المتوترين خلف ملابسهم الكاكية السميكة. تحت جنازير دباباتهم الرابضة، التى يجمحون جماحها حتى لا تنطلق شوقًا للعبور المنتظر. أخفى شعورى بالغيرة، وهى تواجه الجالسين بابتسامتها التى لا تفارق شفتيها، وتحدق إليهم بأنوثة بنفس النظرات الحانية التى تنظر بها إلى وجهى المحروق من الشمس. لا تخفى عنى احتفاءها بهم، تفيض بشرًا سعيدة بوجودهم، سعداء بتواجدها، يحتسون الشاى بنشوة، لا تسببها رشفات الشاى الساخن، يمررون ألسنتهم على حواف الأكواب، يتذوقون الزجاج الملتهب، يمتصون سجائرهم بلذة، وعيونهم تومض برغبات خاطفة متوالية، لا يحاولون كبحها أو سترها، المسافات بيننا وبين نبض الحياة طويلة ومضنية، تحسب بأسابيع كثيرة، يرهقنا عدها، ربما تمتد إلى أسابيع أخرى يتضاعف معها الحنين المندلع فى الشرايين، عندها يتوالى ترددهم على سكنى، ويمتد الوقت الذى يقضونه معى، أعلم علم اليقين أنهم يأتون للاستمتاع بجمالها، ومع الوقت اعتدت على إغضاء الطرف عند رؤية الشهوة المتأججة فى عيونهم، ما عاد يزعجنى الوميض الخاطف الذى يحترق على جسدها اللدن، ويتساقط رماده تحت

أقدامهم، نجحت تمامًا فى أن تصل بى إلى هذه الدرجة من البلادة، وعدم الاكتراث بأشواقهم الفائرة، أرقبهم فى سرى، أبتسم باستهزاء مكتوم، موقنًا بأن أحدًا لن يمتلكها، فهى لى وحدى، ولن تكون لرجل غيرى.

يتملكنى الزهو حين اندس فى الفراش، أناديها فتلبى ندائى الملهوف، دائمًا أنا الذى ينادى، تتسلل طواعية لأحضانى، أغوص فى دفئها، أتنشق لفح أنفاسها، أشم عبيرها المخدر، أشتم رائحة العطر فى شعرها المسترسل، رائحة إبطها المحفوف المندى بحبيبات العرق، أجتاز أسوار المكان مربتًا على ظهرها الأملس، تنغمس أصابعى بين استدارات ردفيها، تملؤنى كثافة الجسد، كتلته اللينة، تتلاشى كتلة جسدى، أتحرر من أغلال الزمان، تختلط ذراتى بذرات الكون الشاسع، تدور الأرض محمومة وتندمج بأجواء السماء الشاهقة، أذوب فى النجوم المنصهرة، وحين يستردنى الزمن أعود من جديد إليها، كانت سلسة، لا تتعب، لا ينتابها إرهاق، لا تصدنى، متأهبة دائمًا للاستجابة لعواطفى المشبوبة.

أتى الجندى بعشائى، وانصرف سريعا، حاولت تناول طعامى، ببطء أمسكت رغيفى البارد، شعرت بغصة فى حلقى، تأبى أمعائى أن تستقبل الطعام، ضاعت شهيتى فى وجومى، حتى رفيقى بالمأوى نظر إلىَّ باستغراب بعيونه الصغيرة الجاحظة، وهو فى الركن القريب منى كما اعتاد كل مساء،

يقاسمنى طعامى، بما أجود عليه به من فتات الجراية المتجلدة، بدأت عشرته معى منذ هبطت بسكنى إلى باطن الأرض، وتصادقنا بمرور الأيام، وطَّدت الوحدة العلاقة بيننا واطمأن كل منا لوجود الآخر، نتقاسم الزاد، لا يقترب منى، ولا أقترب منه، ما إن تصله رائحة الطعام حتى يعلم بوجودى، يخرج من جحره، يديم إلىَّ النظر بعينه البراقة، ينساب بجسمه الرمادى بوبره الناعم، يجر ذيله الطويل، إلى الركن القريب، وينتظر، اعتدت وجوده معى، تؤنس أنفاسه أنفاسى، فى قفص القرود المقبض الذى أعيش فيه، ويختفى إن آنسنى زملائى، لم يحبهم فى يوم من الأيام، ينفر من وجودهم، ما إن ينصرفوا حتى يهرول إلىَّ عاتبًا، كأنه ينصحنى بالابتعاد عنهم، يخاف منهم، ويخشى غدرهم. لم آبه به هذه الليلة، شغلنى غياب طروب، كنت أتقبلهما معًا، وغير مستعد بالمرة أن أقبل أحدهما دون الآخر.

زجره مزاجى السيء، فأشاح برأسه عنى، واستدار بتثاقل، وحين مضى تمكنت منى الوحشة، رويدًا.. رويدًا يوترنى غيابها، أشعر بقبح المكان يهيننى، تضيق روحى بالقضبان الحديدية التى تضغط بصلابة على الحوائط، بالضوء الغارب للمصباح الإنجليزى الصدئ، بالأغطية الرمادية المصنوعة من أشواك الصوف، بالباب الخشبى المتهالك للحمام الزرى، بصوت قطرات الماء الكئيبة للصنبور العتيق، أين ذهبت طروب؟، أيقنت بمضى الوقت أنها غير موجودة، من أخذها منى؟ وأين هى

الآن؟.

دلف الجندى من الباب حاملاً إبريق الشاى، سألته وهو يملأ الكوب:

- هل استحم أحد من الزملاء اليوم؟

- حضرة الضابط أنور يا أفندم.

وضح كل شىء فى لحظة خاطفة، أنور!!، ياله من خسيس وغد، عرفت دائمًا أنه مفتون بطروب افتتانًا مفضوحًا، أكثر من غيره يديم إليها النظر، يتملاها، تلتصق عيناه بحسنها، تلمس نظراته جلد بشرتها، تقفز بشبق فوق نهديها المندلعين، غلى الدم فى عروقى، بيَّتُ النية على مباغتته، تركت كوب الشاى جانبًا دون أن أبالى، لابد أن أعود بها، لابد.

أتعثر فى الظلام أتلمس سبيلى متوترًا، ميممًا صوب قفص القرود الذى يعيش فيه، دفعت الباب بقدمى الغاضب، اقتحمت المأوى، وجدتها كما توقعت تمامًا على فراشه، عارية كما هى بكل فتنتها، بقطعتى ملابس البحر البيضاء التى لا ترتدى غيرهما، لم أقل كلمة واحدة، ولم ينبس هو بحرف واحد، وأنا آخذها بين يدى، وأعود بها صامتًا فى الظلام، شعرت بسعادة غامرة وأنا أعيد وضعها على الحائط، فى نفس المكان الذى تركتها فيه حين غادرت قفص القرود الذى أعيش فيه فى الصباح، ودسست جسدى بانشراح فى فراشى الوثير، واستغرقت فى نوم عميق.

سلطان زمانه



ذهب محجوب بثروتنا النفيسة إلى المدينة، من خلف ظهورنا لم يذهب، بل الأدهى أننا نحن الذين أمرناه بالذهاب، على مرأى منا تأهب لمغادرتنا، وقد التففنا حوله نتعجله، جميعنا يثق بمحجوب ثقة عمياء، معترفين.. اعتراف من عركوا الحياة بأمانته وإخلاصه، تفانيه عن حب فى خدمتنا، محافظته على كل ما يخصنا من متاع ومتعلقات، أكبرنا تكتمه الأخرس على أسرارنا، وما يفلت من ألسنتنا من شرور صغيرة، ولما كنا نضن بثروتنا الوحيدة، ونخشى عليها من الهواء الطائر، لم يجل ببالنا أى شخص آخر غيره، يمكن أن نأتمنه على ما بيَّتنا الأمر عليه.

جرأة كبيرة أن نقدم على ما انتويناه، ما نريده صعب، محفوف بالمخاطر، كنا مطمئنين بطبيعة الحال لمحجوب، جندى المراسلة الأمين لقائدنا: حسن إمام، مكمن الخطر الذى استشعرناه، تأتّى من المدينة التى سنرسله إليها، أقرب مدينة إلى موقعنا هى التل الكبير، لا توجد مدينة غيرها بالجوار، ما من مرة مررت عليها قبل اندلاع الحرب، إلا وتشمم أنفى هواءها العبق برائحة الغدر والخيانة، وطالعتْ عينى فى الوجوه البيضاء المليحة أثرًا من الآثار المتوارثة للهزيمة القديمة، خليط العيون الملونة، الشعر الناعم المرسل، والبشرة الناصعة، التى عجزت شمسنا أن تلوحها، فأقول فى نفسى: بصمات السقوط تأبى أن يمحوها الزمن. إلى التل الكبير انتقلت قيادة الجيش، كنا موقنين بأن شوارع المدينة تعج بالشرطة العسكرية، ورجال الأمن والمخابرات، مما جعلنا نتردد ونعيد التفكير، كدنا أن نصرف النظر عما انتويناه، فمن المؤكد أن محجوبًا لابد واقع فى براثنهم، مما يوقع قائدنا تحت طائلة المساءلة، ليس من حقه السماح لأى فرد بمغادرة الموقع، حتى لو كان مجرد جندى مراسلة.

كنا ثلاثة ضباط احتياط: فاضل وأحمد البدينى وأنا، نعمل تحت إمرة العقيد حسن إمام، قائد المعسكر، بخلاف المقدم حازم أمين المسئول عن أمن الخطوط الخلفية للفرقة، حازم يتبع قيادة أخرى، إلا أن ظروف عمله حتمت عليه الإقامة معنا، فى

منطقة لواء الإمداد بالرجال - معسكرنا، إقامته بيننا رسخت حقه فى مشاركتنا الثروة النفيسة التى لاغنى لنا أو له عنها .

قال حازم للعقيد : «لا بأس أن يذهب محجوب، فاحتمال تعرضه للشرطة العسكرية اليوم احتمال ضعيف، الجميع مشغولون بالأهم، اليوم آخر أيام القتال، فى منتصف الليل كما تعلم يبدأ وقف إطلاق النار».

تفرغ الشيطان لعقل العقيد لاعبًا، ولعب بعقولنا أيضًا، يميل العقيد للاستجابة، يهون الأمر على نفسه، تساءل : «هل أنت متأكد يا حازم»؟.

– على محجوب فقط أن يحاذر من عبور الكوبرى الحجرى على ترعة الإسماعيلية، أو ينتقل إلى القسم الغربى من المدينة حتى لا يعترضه أحد.

ولم يكن العقيد بحاجة إلى ما هو أكثر، ليأمر محجوب بالذهاب .

وقفنا جميعًا نودع ثروتنا التى يحملها محجوب الأمين، ترنو العيون بخوف وشجن إليها، ومحجوب يحملها بيده، ويؤرجها بخفة، غير عابئ بما ينهشنا من قلق، بادره القائد وتبعناه:

– أمامك ساعتان لا أكثر لتعود.

– لا تتأخر دقيقة واحدة يا محجوب.

– إياك أن تعبر الكوبرى ويغويك الشيطان.

– أملنا كبير لا تخذلنا.

– حذارِ أن تلهيك المدينة وتغريك مباهجها، فتبدد وقتًا تؤاخذ عليه.

– الويل إن أغراك الفرار.

– الغياب فى حالة الحرب محكمة عسكرية، وجريمة مخلة بالشرف.

– كن رجلاً كما عهدناك.

– نهار رمضان قصير.

– أنت أدرى بمغبة التأخير عن موعد الإفطار.

– حذارِ يا محجوب حذارِ.

– لو فقدت ثقتنا ستخسر الكثير.

لم يبالِ محجوب بصيحاتنا، لم يتوقف ليستمع إلينا، لم يلتفت مجرد التفاتة قصيرة نحونا، ليبث الطمأنينة فى نفوسنا، لم يبد عليه مجرد الرغبة للاستماع، لم يتصنع الإصغاء لوصايانا، ليرضينا، مضى غير آبه، تناثرت تحذيراتنا هباء فى أعقابه، ببنيته الهشة يسابق الهواء، مندفعًا للأمام لا يلوى على شىء، تحرِّكه لهفة هائلة إلى شىءٍ ما، تركت هيئته فى نفوسنا شعورًا غامضًا بالانقباض، حمية التلهف التى تدفعه لم تغب عنا، قال كل منا فى سره : «محجوب قد بيَّت أمرا، يا ويلنا منك ويا ويلك منا»!.

سرعان ما اختفى عن أعيننا المرتابة، ابتلعته الرمال الصفراء الشاسعة فى غمضة عين، ونحن واقفون فى أماكننا

متجمدين، تتلاعب بأحلامنا الهواجس، وبآمالنا الظنون .

تمتم القائد كأنما يحدث نفسه : «أتظنونه سيعود»؟، أجبناه بثقة مزيفة فى خفوت : «بالقطع سيعود».

آلت الثروة إلينا بطريق مشروع، أستطيع أن أؤكد ذلك بكل ثقة، رغم إحساسنا جميعًا بأننا لصوص، كنا نقف - فاضل وأحمد البدينى وأنا - خلف العقيد حسن إمام عندما استولى عليها، لم نستنكر تصرفه، لم نشعر أن الرجل يخالف ما عهدناه فيه من تمسك صارم بالقوانين، التى نحفظها بدورنا عن ظهر قلب، ولو شاهد ما شاهدناه أحد غيرنا لما رأى فى تصرف العقيد إلا ما يحتمه الواجب المفروض عليه، ولكننا أحسسنا بالخزى، لم تغب عنا الدوافع الخفية وراء ما يحدث، شهوة التملك احتدمت داخلنا أيضا، فى مسيس الحاجة كنا لهذه الثروة، ولو لم يفعلها العقيد، لأوعزنا إليه أن يفعلها، أو لفعلناها بأنفسنا، كان الإغراء أقوى من استقامتنا .

نظر إلينا العقيد يلتمس بعينيه التأييد، ابتسمنا استحسانًا، فابتسم مطمئنًا، ثم أطرق بعينيه المنكسرة متحاشيًا التطلع إلينا، وتجنب كل منا النظر للآخرين، يقهرنا الإحساس بالجرم، أبحنا لأنفسنا حقًا ليس لنا، لم نكن لنؤمن بما يسلم بصحته الكثيرون، بأن ظروف الحرب الطاحنة تعطى للقوى وحده الحق فى الحياة، وأن له وحده دون غيره الحق فى تملك كل ما يعينه على البقاء، هذه المآثر الحكيمة لا يعترف بها المقاتلون، هم

يعيشون واقعًا مختلفًا، تعلموا منه أنه فى مواجهة الموت يتساوى الكبير والصغير فى الأهمية، يتجردون على خط الاقتحام من كل ما يميز أحدهم عن الآخر، العظيم والأقل عظمة ومرتبة، الكل سواسية، نعرف أننا بما ارتكبناه قد خالفنا ناموس القتال الذى نؤمن به إيمانًا فطريًا، استبحنا لأنفسنا ما يمتلكه غيرنا ممن هم أقل رتبة، ويعملون تحت إمرتنا، ويعيشون معنا نفس الظروف التعسة التى يعانون منها ونعانى، بمعسكر لواء الإمداد بالرجال، الذى فرضت تطورات المعارك أن ينعزل منسيًا خلف الخطوط .

فى البداية كانت الحياة بالمعسكر مبهجة، كانت الشاحنات تتوافد برجال الاحتياط ضباطًا وجنودًا فى أية ساعة من ساعات النهار، تتوقف الشاحنات فى ساحة المعسكر، ويتقافز الجنود القادمون بأمتعتهم مستبشرين، يصطف من سبقوهم على الجانبين فى استقبالهم مهللين بفرح، يتطلعون إلى القادمين بحثًا عن الزملاء القدامى. يتصافح الأصدقاء، يتعانقون بلهفة، ثم يختفى الجميع داخل خيام المبيت يتسامرون مغتبطين، يتساءلون عن الأخبار، الضحكات المجلجلة تنطلق بصفاء، صادحة بالهمة والعزيمة، لا يهتم الوافدون بإخراج مهماتهم من المخالى أو ترتيب أمتعتهم ، لا يخطر على بال أحد منهم السؤال عن الفرش الذى سينام عليه، أو النظام المتبع بالمعسكر، لماذا يجهد نفسه؟ ما هو إلا يوم أو على الأكثر يومان، ويرحلون

للانضمام إلى الميدان منخرطين فى صفوف المقاتلين، الجميع يحلم بأن يلحق بوحدته القديمة، تلك التى أحيل منها إلى الاحتياط، يتذكر رفاقه الذين تركهم هناك، متشوقًا لصحبتهم، يعرفهم ويعرفونه، على مدى سنوات عديدة أهَّل نفسه للقتال معهم، ومع كل صباح تفد شاحنات أخرى، تنتظم الصفوف ويسود الصمت، تصغى الآذان، ينادى على سعداء الحظ، يحملون المخالى التى لم تمس، يقفزون بحماس على ظهور الشاحنات، بين الهرج والمرج تلوح أيادى المغادرين، تسعل الشاحنات المكدودة، تبصق أدخنتها، تئن مفاصلها، وتمضى إلى حيث لا يعلم الجنود، كل ما هم واثقون منه أنهم فى طريقهم إلى الخطوط الأمامية، ليحلوا محل الشهداء، أو محل المصابين بإصابات بالغة أعجزتهم عن مواصلة القتال، مئات من الشاحنات وفدت، ومئات منها غادرت، تدفق إلى معسكرنا مئات ومئات الرجال، من كل فج قدموا من مختلف الأسلحة، يومًا أو يومين مكثوا وغادرونا، جماعة تلى جماعة، ثم استقر الحال، انحسر الوصول، وكفت المغادرة واستتب المقام البغيض على رجال المدرعات، وحدهم، لم يبقَ غيرنا بالمعسكر.

كانت الخسائر تفوق نسبة الـ ٣ ٪، الدبابات تدمر قبل إصابة الأطقم، معارك المدرعات الهائلة تخلف على ساحات القتال جثث الدبابات الصرعى، ديناصورات قتيلة، مسجاة بلا حراك، تنتشر جيفها على المدى الشاسع لساحات المعارك،

العين لا تميز ما يخصنا منها، وما يخص عدونا، القيادة تستعوض الخسائر الجسيمة، من إدارة الجيش أو إدارة السلاح، يأتى المدد بوحدات كاملة التشكيل من الدبابات بأطقم الرجال، هكذا لم تعد هناك حاجة إلينا، أصبحنا بلا قيمة، هجرنا ومعسكرنا، ومع احتدام المعارك الضارية نسينا، أدرك الجنود ما آل إليه الوضع، فقدوا الأمل فى الانخراط فى صفوف المقاتلين، والالتحاق بالجبهة، قالوا: «إن عيون القادة المصوبة للأمام على الخطوط الأمامية للجبهة، وتشغلها المعارك الدائرة، لا يسعها النظر إلى الخطوط الخلفية حيث نقيم»، «لا أحد يفكر بالاستعانة بنا»، «لا ضرورة لنا»، «سنظل بالمعسكر المهجور إلى نهاية الحرب»، «لن يكتب علينا شرف القتال»، لم نكن نحن ضباط الاحتياط الثلاثة بأفضل حال من الجنود، نعيش معهم تعاسة الانتظار خلف أسلاك المعسكر الذى فقد أهميته.

بدأ الجنود يتهيئون لإقامة يعرفون أنها ستدوم، لم يكن معسكر الإمداد مهيئًا لإقامة دائمة، أنشئ على عجل بعد بداية الحرب لاستقبال الرجال لمدة مؤقتة قبل توزيعهم على الوحدات المقاتلة، منذ ذلك الحين بدأ التبرم يتسلل إلى صدور الرجال، تبرم الرجال من فرش النوم، وأماكن المبيت، وقلة المياه، وقذارة الأدبخانات، من فقر التجهيزات والأدوات، تبرموا من كل شىء، فجرت تعاسة الانتظار مشاعر السخط، كان الجنود من قدامى المجندين، لم يكن من الهَيِّن عليهم التبرم من شظف العيش

وقسوة الظروف، كانوا مدربين تماماً على قوة التحمل، وحلاوة التضحية بالذات، وتقبل الواقع، لكن الواقع الذى رفضهم أصابهم بالقنوط، وأثار عنادهم، وهيج غضبتهم، تفشت المشاحنات بينهم على أتفه الأمور، ولم تلبث عوامل التذمر أن تجمعت منذرة بالانفجار.

قال البديني: الجنود على وشك التذمر، يسألون عن تسليحهم الشخصى.. يسألون كيف يمكن أن يدافعوا عن أنفسهم إذا حدث هجوم على المعسكر وهم بلا سلاح.

قال القائد: احتمال الهجوم احتمال ضعيف، إن لم يكن مستبعداً.

– لكنه احتمال قائم، ومن حقهم السلاح الشخصى.

– نعتمد على الأسلحة التى لدينا.

– الأسلحة والذخيرة المتوفرة لا تفيد، لا تفى باحتياجات الدفاع عن المعسكر بجنوده وضباطه.

– تفى بالغرض لا تبالغ، لن نتعرض لهجوم بكل تأكيد.

– ما لدينا لايتعدى الخمس عشرة بندقية آلية وصندوقين من الطلقات، لدينا أكثر من ثمانمائة رجل بدون سلاح.

– أتفق معك، ولكننى أؤكد أننا لن نتعرض لهجوم.

– الاحتمال وارد.

– أنت تعرف سخف الرجوع بمطالبنا إلى القيادة الأعلى المنشغلة بمهام أجلَّ شأنًا، كن واثقًا من أن القيادة لو رجحت

احتمال الهجوم لما تركتنا .

– حتى لو لم يستخدم الجنود التسليح الشخصى، فوجوده بحوزتهم يبث الأمان والشجاعة فى نفوسهم، يقولون : لا تتركونا كالدجاجات من السهل افتراسنا.

– علينا إذن توعيتهم، ورفع معنوياتهم بصفة مستمرة، والحفاظ على مستوى الانضباط بينهم، ما دمنا لا نستطيع توفير التسليح الشخصى، إنهم جنود قدامى ملتزمون وطيبون، هم قانطون لاغير.

قال فاضل : (معترضًا) قانطون؛ لأن بطونهم توجعهم، الجيوش تمشى على بطونها، وجبات التعيين الجافة مقرفة، لو وفرنا وجبة ساخنة فى اليوم لداوينا اليأس الذى يقتلهم..

– حتى هذه لا يمكن توفيرها، لدينا أطنان من التعيين الجاف، وليس لدينا أية إمكانيات أخرى يمكن توفيرها، المعسكر مهيأ للإقامة المؤقتة، لا نستطيع التجاوب مع الظروف الطارئة.

– الجميع يشكون من آلام المصران، والحساسية من المواد الحافظة، وأقراص الوقود الجاف لا تكاد تزيل برودة الطعام.

– نحن نعانى أيضًا مثلما يعانون.. لا حيلة أمامنا..

– لا حيلة أمامنا!! يمكننا!! إقناع الجنود بأنهم لن يتعرضوا لهجوم يتطلب تزويدهم بالأسلحة الشخصية، لكن لن ننجح فى إقناع بطونهم، البطون لا يمكن إقناعها، لا تجدى معها الآمال

الكاذبة.

صمت فاضل وتابع، أمعائى تتلهف لمتعة الطعام، أنفى مشتاق لرائحة الخبز الطازج، فمى متلهف لمذاق الأرز الطيب، والخضروات الطازجة ، عينى تشتهى لون الشاى القانى والبخار يتصاعد منه، الحرب انتهت بالنسبة لنا، وانتهت أيضا لذة الحياة.

– كف عن رثاء نفسك، ولا تأسَ للجنود، الجنود ماهرون دائمًا فى خلق متعهم، والتغلب على المشاكل مهما كانت فادحة، تابع العقيد : ليس أمامنا إلا المحافظة على الانضباط .

لم يمضِ وقت طويل، حتى جاء ذلك اليوم المبارك الذى وضعنا فيه أيدينا على ثروتنا التى نعتبرها أنفس ما فى الوجود.

اشتعل صباح ذلك اليوم المبارك بهمة الرجال، استجابوا لنداء أول شعاع للشمس، نحّوا أغطية الانتظار الممل، هبوا بنشاط فماج المعسكر بالحركة، بحماس أعاد الرجال إلى الخيام والأرض بهجة النظافة، ومسرات النظام، استعدادًا لمرور القائد للتفتيش، تهيئوا لطابور فرش المتاع، الذى أمر به العقيد، فى الوقت المحدد قدم بمشية عسكرية رشيقة، سرنا خلفه محتذين بخطواته المنتظمة، نمر على صفوف الخيام، خيمة من بعد خيمة، الجنود قاطنوها يصطفون أمامها، يعرضون على الأرض المنبسطة متاعهم الشخصى، جدية التفتيش وحزم القائد أرغم الجنود على إبراز ما خبئوه من مهمات وأدوات

يعتقدون أنها محظورة، بحنكة الخبير يصادر العقيد المخالف منها، الجنود يبتسمون بغبطة، يساور البعض الشماتة فى البعض، لم يبد أحد منهم تبرمًا لما يصادر، ربما أسعدهم ما شعروا به من اهتمام جاد، انتعشت آمالهم فى الذهاب إلى الجبهة، تمنوا أن يكون ذلك حقيقة، قبل أن ينتهى طابور التفتيش المضنى انتبهنا إليه، بدا بين الأمتعة مشعًا بلونه النحاسى المتوهج، عاكسًا أشعة الشمس الذهبية، المتألقة فى غور السماء الأزرق، ليس كمثله شىء فى بهائه، انتصب بشبابه قائمًا فوق أرجله الثلاثة المتينة، معتزًا بنفسه، شامخًا بعنقه، رافعًا رأسه الكمثرية، مزهوًا بطربوشه الأسود، كانت لحظة مجيدة فى حياتنا، توجه القائد إليه منحيًا اهتمامه عن كل ما عداه، خلفه نسير، تسرسبت شهوة التملك الخبيثة إلى دمائنا الآخذة بالتدفق، تفجرت الرغبات المكبوتة الكامنة بأمعائنا، بتؤدة غير المبالى صادره القائد، غمرنا فرح مخجل، بعظمة ألقى القائد بصوته الجهورى خطبة عصماء عن ضرورة الانضباط وخطورة تعريض الخيام لمخاطر الحريق، خاصة - قال - إن الوسائل المتوفرة لمقاومة الحرائق لدينا معدومة، كان قوله هذا هو الكلام الصادق الوحيد بين كل ما قاله فى ذلك النهار.

من بين كل الأشياء المصادرة، أصبح وابور الجاز البريموس النحاسى غنيمتنا الوحيدة، وقتها لم ننتبه إلى ما سيحدثه فى

حياتنا من تغيير، اقتصر تفكيرنا المحدود على ما سيتيحه لبطوننا من متع حرمنا طويلاً منها، الأرز المفلفل والخضروات الساخنة سخونة النار، وأكواب الشاى القانى متصاعدة البخار.

عصر اليوم نفسه جلسنا ننتظر الإفطار، على أمل انتظرنا، هى المرة الأولى التى نخلو إلى أنفسنا لدواع أخرى غير العمل، فى الغرفة التى تحولت إلى مطبخنا، تصاعد وشيش البريموس، أنصتنا لعزفه باستمتاع مجرح بإحساس الخزى، وما أسرعه فى التلاشى شيئًا فشيئًا كلما فاحت شيئًا فشيئًا روائح الطبخ الزكية، ومع تفاعل أذان المغرب مع طشيش التقلية تغلبت شراهة البطون الجوعانة على الإحساس بالعار، معلبات الخضروات الكئيبة تحولت بالنار والتوابل إلى وجبة مفتقدة من وجبات رمضان بيوتنا البعيدة، واطمأنت النفوس مغتبطة ببهجة الحياة التى لا تزول رغم المحن والنوائب، ومع المساء العليل وجدنا أنفسنا طواعية نغادر عزلتنا المنفردة، نلتف متسامرين تجمعنا أكواب الشاى القانى متصاعدة البخار، وشاع فى الجلسة جو من المودة والألفة والحبور، مع سحر السمر اكتشفنا أنفسنا، وتعمقت أواصر الصداقة بيننا فى مجتمعنا الصغير، وأيقنا بأن شيئًا عظيمًا قد حدث، لا يقل أهمية عن اكتشاف جدودنا الأوائل للنار، فآمنا بأن البريموس هو ثروتنا النفيسة، ومصدر السعادة الوحيد فى حياتنا التعيسة.

مع البريموس تألق وجود محجوب، فرضه البريموس علينا،

ومن الوجبة الأولى قدَّرنا كفاءته، وبمعايشته سلمنا بإخلاصه، فى أمسيات السمر يقعى على مقربة، لم يبدُ على قسماته أنه يصغى إلى ثرثرتنا، أو حتى يبالى بحكايانا، عيناه الغافيتان دائما غافلتان كأنهما لا ترانا، أذناه لاتتطفلان على أسرارنا، لايبتسم إذا ابتسمنا، ولا يضحك إذا ضحكنا، قانع كان بوجوده، قابع داخل شرنقة الصمت، بآلية يتحرك تلبية لطلباتنا، بهدوء يروح ويجيء كطيف من الأطياف .

تبدأ جلستنا بنشرة الأخبار، حازم أمين يقص علينا تفاصيل ما يجرى من أحداث على الجبهة، وتعليق من هنا وتعليق من هناك ويستلم فاضل زمام الجلسة، كان فاضل ثرثارًا كبيرًا وفاجرًا جليل الشأن، حكاءً مفوهًا يسلب العقول، لايدع فرصة الكلام تفلت منه وتنتقل لأحد آخر، حتى حسن إمام يتنازل عن صرامته مستسلمًا لطبيعته الفكهة، مستمتعًا مثلنا بأحاديث فاضل المثيرة، تزيدها طلاوة لكنته الصعيدية الباهتة، وحكايات فاضل لاتنتهى، تصل ذروة التألق عندما يصل إلى عوالم النساء، وهو لا بد أن يصل، وإذا وصل يسترسل بلا انتهاء، شغوفًا بالوصف مستمتعًا معنا بما يقول، عندها يتحول وجهه الأقرب للدمامة إلى تحفة نادرة من الجمال، بؤبؤ عينيه الأسود الصغير يتوهج بنور ذهبى يشع بعشق الحياة، شفتاه تتورد وتكتظ بلهيب الشهوة، تختفى حبوب الشباب القاسية التى تشوه جبهته العريضة وأنفه الضخم، ولفاضل مع النساء تجليات ومآثر،

وأروع مآثره مع الشقراوات، يخلبن لبه تماما، وينخلع قلبه، وتتحول حكاياه إلى غناء، وأغنياته إلى مدائح، ويصل ونصل معه إلى ذروة الاستمتاع واللذة، أو قل الإنعاظ كامل الأوصاف والشروط، عندما يتغنى بالشعرة الصفراء، فتدب الأشواق فى عروقنا المتيبسة، وتقتحم برودة أطرافنا الشهوات الفاجرة، يحاول حسن إمام لملمة هيبته التى تعصف بها رغباته المتقدة، يبتلع مع لعابه فجوره الأصيل المتجذر بأغواره، فلا تطيعه سجيته المهتاجة، ويتململ فى جلسته، ونشعر جميعًا بأنه منزعج من وجودنا، يريد أن ينفرد بنفسه، ونحن لانقل عنه رغبة فى الانصراف، لنجتر الذكريات الخبيثة.

بين الحين والحين كنت أرقب محجوبا، أتلصص على ملامحه، عيناه الغافيتان تظلان غافلتين، بينما خطواته تتباطأ فى غدوه ورواحه، كما لو كان يعز عليه أن يفلت من سمعه جملة واحدة من أحاديث فاضل الفاضحة .

انغمسنا فى مسراتنا، وتاه عن بالنا أن البريموس ثروتنا كأى بريموس آخر عرضة للأعطال، حتى أعلننا محجوب بوقوع الكارثة، وذهب محجوب الأمين بثروتنا النفيسة إلى المدينة .

محجوب الأمين الذى ذهب إلى المدينة لم يعد بعد ساعتين كما قدَّرنا، انهمكنا فى أعمالنا متمنين عودته، ومرت ساعة أخرى ولم يعد، لم نلقِ بالاً وإن شابت ثقتنا الظنون، واندمجنا عامدين فى أعمالنا متمسكين بالأحلام، مرت ساعة رابعة

وخامسة، ومحجوب الأمين لم يعد، بدأ التوتر يتسلل إلينا رويداً، رويدًا، زقزقت عصافير بطوننا مع أذان الإفطار، وقد غمرنا الحنق، لعنًّا سرًا محجوبًا، غاضبين بحثنا عما يكسر صيامنا، وينقذنا من ضراوة الجوع، نمنى النفس بأمل لا يصمد أمام الارتياب، أن نرى محجوبًا أمامنا فجأة حاملاً ثروتنا النفيسة، موعدًا بما لذ وطاب، خيمت الكآبة على جلستنا، نضرب أخماسًا بأسداس نتنبأ بأسباب الغياب، وعصفت بأفكارنا الهواجس.

استسلم الصمت لحسرتنا، ومضى الوقت مملاً ونحن واجمون، حتى فاضل تخاذل للسكوت، يجلس بيننا بمزاج معتل كمزاجنا، وبوجه متجهم قبيح، نخشى أن نفترق إلى عزلتنا المنفردة، فنكون قد اعترفنا بالفشل أو تخاذلنا لليأس، على غرة تبدد السكون، بتوتر أصغينا، انتفضنا متأهبين، خارج الغرفة التى احتوتنا بنورها الخافت، اشتعلت الجبهة بدوى الطلقات، تحفزنا للخروج، عدا قائدنا حسن إمام، ظل قابعًا فى كرسيه وابتسامة باهتة صعدت إلى شفتيه لتموت، قال دون اكتراث:

– الجنود يحتفلون بسريان وقف إطلاق النار، الساعة الثانية عشرة.. لاتبالوا، دفعنا الفضول للخارج، وهج الرصاص المنهمر من كل مكان يمزق أستار الليل المعتم، الظلام الممتد بلا انتهاء من الشرق إلى الغرب تثقبه الطلقات المضيئة المارقة، جلبة الدوى تتزايد صاعدة إلى جوف السماء الجليلة الارتفاع، «هل انتهت الحرب»، نظرنا إلى بعضنا مستغربين، جلجلة الرصاص

العمياء تتردد حولنا: «انتهت الحرب»، استدرنا دالفين إلى غرفتنا خافتة الضوء، نشعر أننا تحررنا من ربقة المسئولية، سقطت عن الكواهل أعباء ثقيلة، يد فاضل تدير مفتاح إضاءة المصباح، فشع ضوء ساطع.

– المقدم حازم أمين يتأهب للخروج : «عليَّ القيام بجولة تفقدية ، أراكم صباحًا»، فاضل يتساءل موجهًا خطابه للعقيد:

– متى تنتهى مراسم الاحتفال ويكفُّون عن إطلاق الرصاص؟

– حتى تنفد الذخيرة، أجاب حسن إمام بثقة واستسلام .

– «الأمر خطير» قال البدينى متوترًا، وتابع : «جنودنا أيضًا يرقصون مع الراقصين».

– مثلهم مثل غيرهم من الجنود – لا تنفعل لن يقع مكروه.

– من يطمئن لعدوٍ لا يؤمن جانبه.أتراه سيلتزم بالقرار؟

– ثق لن يقع مكروه.

– أفندم، ماذا نفعل إذا وقع المكروه؟

– اهدأ يا أحمد، لا توجد قوة يمكنها أن تمنع الجنود من طقوس العرس، هم فرحون لا أكثر.

– هل هناك أشياء أخرى سوف يفعلونها؟

– لا تقلق، سترى، ستكون الأمور على خير ما يرام صباحًا..

– يالها من ليلة !

– ستمر، صدقنى، كغيرها من الليالى .

وافتنا الأخبار بعودة حازم صباحًا، الجنود المنهكون الذين قضوا ليالى كثيرة بدون نوم، أفرغوا ذخيرة الأسلحة الصغيرة فى الهواء، غنوا بأصواتهم المزعجة مواويل الحب والغرام، وهم يحممون أبدانهم المعروقة المتسخة بالماء والصابون، مسام الأجسام المحرومة من نعمة التنظيف انتشت بوابل المياه الساخنة، ارتدوا ملابسهم وستراتهم المغسولة، وتمتعوا بوجبة طعام تفننوا فى إعداده، ثم استسلموا للنوم هانئين، مع الصباح الباكر هبوا مستعيدين العافية، لم يبددوا وقتًا هباء، بادروا من تلقاء أنفسهم بإجراء الصيانة للأسلحة والمعدات، استكملوا بحماس شدة الذخيرة، ومستويات الوقود والزيوت، كلما مررت على جماعة منهم استوقفتنى لتسألنى نفس السؤال: «لماذا تتوقف الحرب قبل تطهير الثغرة»؟!.

قطع حازم استرساله: «لكم عندى مفاجأة» لم يمهلنا، فتح الباب ونادى : «معتدل مارش»، فدخل محجوب بخطوات منتظمة: «قف»، وقف محجوب بيننا، «التقطته من الخيام التى على أطراف المعسكر».

لم تدهشنا عودة محجوب، فهو لابد عائد بهذه الطريقة، أو بأية طريقة أخرى، ما بوغتنا به ما طرأ على مظهره من تغيير، فمحجوب الذى عاد من المدينة ليس هو محجوب الذى ذهب إليها، بدا فى وقفته مختالاً وسيمًا، منطلق المحيا بشوشًا، يكاد أن يكون أنيقًا فى سترته النظيفة المكوية، وحذائه اللامع .

- أين كنت ؟ سأله القائد .

- ذهبت إلى المدينة كما أمرت .

- أين البريموس .

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، وشعت عيناه بالحبور ولم ينبس بحرف، وأعاد القائد سؤاله محتدًا:

- أين البريموس ؟

أجاب محجوب بصوت هامس وافد من جزر الأحلام: «ضاع».

- كيف ضاع ؟

- ضاع ! كادت ابتسامته أن تتحول إلى ضحكة هانئة .

- لا تراوغ.. وقل الصدق.. إياك أن تكذب.. أحذرك من الكذب .

- لن أكذب. وبدأ محجوب يحكي القصة باستمتاع كأنه يعيش تفاصيلها من جديد:

عندما ذهب محجوب إلى المدينة لم يدر بباله ولا في خياله كل ما وقع له من أحداث عطرة، ما جرى فاق كل أحلامه، وأحلام محجوب متواضعة، تواضعه القانع بدور الخادم، الراضي بفتات الموائد، وأقصى ما كان يصبو إليه أن تتكحل عيونه بمشاهدة النسوان، رائحات غاديات في أسواق البلدة، أن يتخير موقعًا يتيح له التلصص على رعشات الأرداف وشموخ النهود، وحور العيون في الوجوه المليحة أو غير المليحة، أن

تتشمم أنفه رائحة الإناث العبقة التى تتطاير مع هبات الهواء، مضى يتعجل الوصول إلى مبتغاه بقلب مشوق، ونفس مترعة برغباته الصغيرة، لم يشغله أمر البريموس، وكيف يصلحه، فهو يعرف أن البريموس سليم تمامًا من أية أعطال، لم يكن من سبيل آخر أمامه للقيام برحلته غير الادعاء، قال فى نفسه: «وما المانع سوف يغير الفونية وجلدة الكباس، لا ضرر أبدًا، وفى المدينة أكثر من سمكرى، ولا بأس من ساعة فرجة على مخلوقات الله الجميلة، يعود بعدها لمعسكره والبريموس أفضل مما كان، وقد أشبع نفسه من متعة المشاهدة ولذة الأحلام». كان مطمئنا أن مخططه لن يؤثر على قادته، فبينه وموعد الإفطار وقت طويل، وسيتحفهم بالخضراوات الطازجة، والسلاطات التى يتوقون إليها، سيحمل كل ما يستطيعه من مشتروات مما يجعلهم راضين عليه، ممتنين لأفعاله، وربما يدفعهم الرضا للسماح له كل عدة أيام بالذهاب إلى المدينة دون أن يضطر للكذب، واختلاق الحجج وابتداع المبررات .

الصدفة وحدها دمرت خطة محجوب البسيطة والمقبولة، فى الجهة المقابلة للموقع الذى تخيره رآها، تفرش أمام محلها الصغير عدة أقفاص لليمون والخضر (بقدونس وفجل وجرجير)، تملَّى من وجهها المليح وعودها الفارع، فأسكرته النظرة، رق جفاف جوفه ولانت أعطافه فعاد يرنو نحوها، بعينين مستمتعتين، ومن المؤكد أنها شعرت بحنين نظراته فبادلته

النظر مستطلعة، لم يكن محجوب يمتلك أيـة مواهب خاصة تغرى النساء، بلونه الداكن السمار وشعره المشعث وعوده الضامر وأفروله المتسخ، لكنها ابتسمت للحنين فى عينيه ابتسامة المعتزة بجمالها، إلى هنا جرت الأمور بتلقائية، وكان من الممكن أن تنتهى عند هذا الحد، ويستكمل محجوب بعدها خطته، التى لاضرر منها، لولا انزلاق الطرحة السوداء عن رأسها، كاشفة عن خصلات شعرها الأشقر، عندها فقط جنَّ جنون محجوب، وتبدَّل حاله من النقيض إلى النقيض، صار شخصًا آخر غير محجوب المغلوب على أمره، استأسد حيوان متوحش داخله، لاينتمى إطلاقًا لحيوانه الضعيف المسالم، سمعتْ زئيره غير المسموع المرأة الشقراء على الطوار المقابل، فأعادت النظر نحوه، عيناها هذه المرة لوحت بالترحيب، ولم يكن محجوب بحاجة إلى ندائها، وجد نفسه على غير ما تعود يحمل البريموس بيد، ويندفع منتقلاً إليها .

عصف جمالها بجسده النحيل عندما اقترب منها، جمال فتان لا يمكن لعيون الرجال أن تقع عليه، وتقنع بالنظر، ويتركونها بسلام، ولكن ما إن يخترق الصياد منهم بإرادته مجالها القريب، حتى يتغلب عليه سحرها الآسر، وتسقط عنه سطوته، ويفقد قدرته، ويصبح هو الفريسة لا حيلة له فى الفرار وقد شعر بالخطر، ليس أمامه غير الاستسلام لمشيئة الأنثى الطاغية لتفعل أولا تفعل به ما تشاء وقتما تريد، كانت امرأة

أخاذة، قوية بضعفها وفتنتها، تعلمت من قسوة الحياة الكثير رغم أنها دون الثلاثين أو تجاوزتها بقليل .

من اللحظة الأولى وقع محجوب فى شباكها، وشعر مثله مثل الآخرين بقواه تقتلع بعنف، تبعثرها الفتنة الودودة فى الهواء، لكنه كان يسترد جبروت الرجل الدخيل على شخصيته، كلما نظر إلى خصلة شعرها الحريرى الأصفر، الموعد بالكنز الذهبى المخبوء تحت طيات ثيابها السوداء، وربما حير صموده المرأة، فهى لم تعتد غير الاستسلام والتذلل والخنوع مجلبة لاسترضائها، فآثار تماسكه فضولها، وكبر فى عينيها، فأغضت الطرف عن بنيانه الهش ودمامة خلقته، وأفروله المتسخ، ومن باب الفضول رأت أن تسمح له بالعبور إلى عوالمها، مستأنسة خيرا، بادرته بالكلام، سألته عن حال من فى الجبهة، والسلاح الذى يتبعه، واللواء الملحق به، أخبرته أن زوجها جندى مثله، لكنه بالسويس، لا تعرف عنه شيئا، إن كان حيًا أو ميتًا، وحدثها بدوره بأشياء وأشياء، قص حكايات وحكايات مما احتفظ بها بذاكرته، ولم يسلم الأمر كالمعتاد من التحوير والتدوير ناسبًا البطولات إلى نفسه، قال إن زوجها سوف يعود ومعه أموال طائلة فما يتقاضاه العسكريون من رواتب هائلة وقت الحرب يبقى فى جيوبهم، فعلى الجبهة لا يوجد أى شىء يمكن الإنفاق عليه، قال: إنه أيضًا يحمل نقودًا كثيرة، لا قيمة لها، ويمكنه الاستغناء عنها، فلا ضرورة لها، قاطعته وقد أدركت مرامه..

كانت لا تكترث بالنقود أو بأية أشياء أخرى، لمجرد الكلام وتوطيد الود قالت :

– يعجبنى الوابور الجاز .

– البريموس ؟

– كثير علىَّ؟ سألته غير مكترثة بالرد أو بالبريموس .

حدث الرجل الدخيل عليه نفسه، ما الضرر فى أن يجاريها، حتى يظفر ببغيته، وبعدها يحلها حلال، كانت واثقة من قبوله، ولو رفض لما تمنعت، رغم حاجتها الشديدة للوابور، سألته : «اسمك إيه »؟.. محجوب، وأنتِ ؟ صفية. ثرثرا ، ضحكا معًا، وبودٍ قال : ألم يحن الوقت؟ لِمَ لا نقوم ؟

– أنا صائمة يخرب عقلك، بعد الإفطار، ادخل اخلع الأفرول وملابسك اتسلى بغسلها، وسخن ماء لتستحم .

الدكان مدخل للبيت، يفصله عن السكن باب جانبى، على الجانب منضدة خشبية مستطيلة بطول الدكان المدخل، عليها الطماطم والبطاطس وباقى الخضراوات وخيرات الله .

فى الغرفة الخلفية خلع ملابسه، متعجلاً خشية أن يتسخ المكان، وقف منبهرا، روعة الأثاث خلبت لبه، سرير حديدى بعمدان سوداء صدئة تنسدل عليه ستائر بيضاء مصفرة من القدم، دولاب خشبى كالح اللون يكاد يتهالك بمرايا كبيرة لم تسلم من الشروخ، كنبة «استانبولى» مغطاة بكليم مصنوع من جدائل القماش وعلى الأرض الأسمنتية غير المستوية كليم

قماشى آخر، على الجدارن الجيرية صور عديدة لممثلات الإغراء والراقصات الشهيرات، لم تعتد عيناه البذخ البادى، دار عائلته فى النجع ليست بهذه الروعة، دلفت بسرعة للغرفة، تناولت الثياب المخلوعة الملقاة على الأرض: «اخلع باقى ملابسك وسخن الماء، ونادنى»، الممر الصغير بين الغرفة والحمام تحول إلى مطبخ، ملأ البريموس بالكيروسين منحيًا وابور الجاز القديم عديم النفع، تألق البريموس منسجمًا مع روعة المكان، عزف الوشيش صادحًا بأنغامه الموعدة، الحمام الصغير يعبق برائحة الفنيك، تهيأ للاستحمام، وجدها بجواره مؤنبة تحدثت إليه بدلال ولطف: «قلت لك نادنى.. اجلس على كرسى الحمام» نزعت الطرحة السوداء والمنديل عن رأسها، انسدل حرير شعرها الذهبى، فاندلق جنون اللهفة فى جسده، استكان مستمتعًا بجريان يدها على جسده وهى تحممه، فركت ظهره باللوفة، مارة بعنقه وصدره وإبطيه، جدائل الشعر الأصفر تتمايل عليه وهى تنحنى، انتشى من الرائحة الفطرية المخدرة للأنثى، تليف ما بين ساقيه، ضحكت بنعومة عندما لمست توهج أشواقه، جففته بالمنشفة، ألبسته جلبابًا سماويًا، قالت: «تمدد على الفراش..»، وضعت الطرحة على رأسها: «انتظرنى، لن أتأخر»، مر وقت ليس بالطويل قبل أن تعود، تمدد هانئًا مستمتعًا يشعر أنه فى الجنة، تلاشى المعسكر والضباط والجنود فى شبورة السعادة، خلى الذهن من الهموم، توارت الجبهة والحرب، والبلدة ومن

فيها، لاشيء يشغله غير النعيم المرتقب، عادت إليه، بالمقص الصغير تقلم أظافره يدًا من بعد يد استحلى السلطنة، مستسلمًا للمتعة، تقلم أظافر قدميه، قدمًا من بعد قدم، هانئًا قرير العين كان ، «يمكنك أن تنام، مازال أمامنا وقت طويل حتى الإفطار»، سحبت الغطاء ودثرته .

رائحة الطبخ أيقظته، كانت قد خلعت جلبابها الأسود، وشعرها الأصفر الحريرى يتطاير مع حركاتها النشيطة، المصباح الكهربائى الصغير ينير الغرفة، والترانزستور الصغير يؤذن المغرب، يتطلع إليها بمودة وحب، وهو ممد على الفراش بكسل، ابتسم بسعادة حين لاحظ أفروله المكوى معلقًا على مسمار بالحائط .

انتبها لليل وقد أوغل، أفاقا من غيبوبة الغرام، مسترخيان فى الفرش عاريان، يتنهدان بانسجام، انتصف الليل أو كاد، انزلق من السرير يتأهب للعودة، برشاقة لحقته، همَّ بارتداء ملابسه سبقته إليها : «لا تجهد نفسك حبيبى»، قطعة قطعة تقبلها بشغف وهى تكسو جسده الأثيرى، قبلت قدميه وهى تضعها قدمًا قدمًا فى حذائه اللامع الذى أعادت إليه لونه المفقود، تأمل جسدها العارى وهى تنحنى وتعتدل تعد له الشاى، خلايا بدنه مغتبطة تغنى «سلطان زمانه»، مع كل انحناءة يزداد إيمانًا بجمال الدنيا، لم يشعر فى قمة ملذاته أنه يمتلك الموقد المشتعل، كان هذا فى قديم الزمان، ليس من حقه

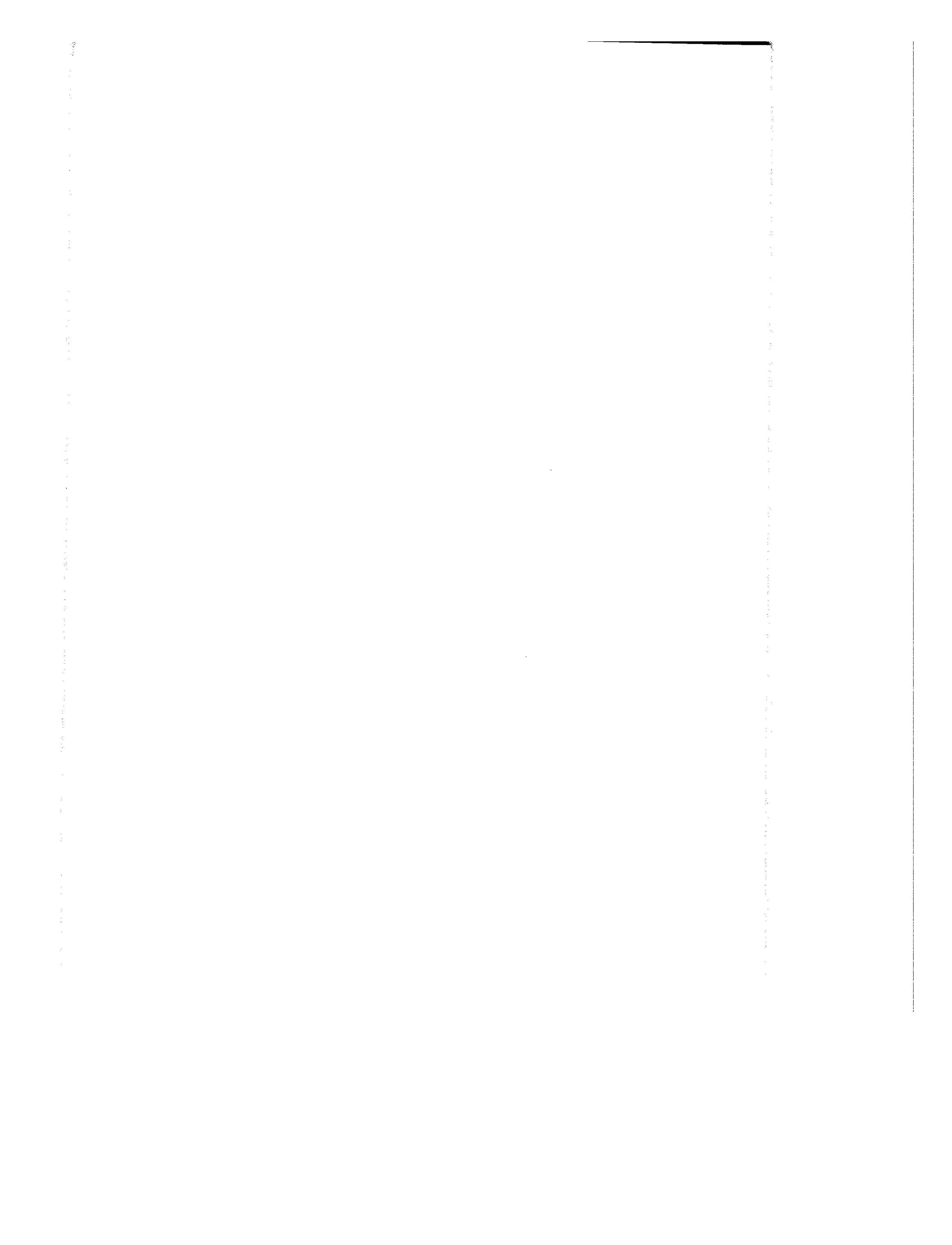
الآن استلابه من مكانه. لايمكن للبريموس إلا أن يوجد فى هذا المكان اللائق به.

قالت وهى تغلق الباب الخشبى خلفه : «مر علىَّ كلما سنحت فرصة»، «بالطبع سأمر»، قبلته بحرارة فى فمه، وبين عينيه، وبامتنان قبلت يديه .

صفعه الليل المعتم، ولفحه البرد فاستعاد نفسه، تخلى عنه الرجل الدخيل على شخصه، قال محجوب لنفسه: «ما العمل»؟، إلا أنه لم يكن نادمًا، «ليكن ما يكون»، وتوجه عائدًا إلى المعسكر يكاد يطير فوق الأرض.

واقف أمامنا ناهض القامة، بأفروله النظيف وحذائه اللامع، يمنعه الخجل من النظر إلينا، وابتسامة الرضا تنير وجهه الأسوانى الأسمر، فاضل ينظر إليه بعينين حالمتين قلبه يرتعش حسدًا، لماذا لم أذهب أنا لإصلاح الموقد، انتحينا - البدينى وأنا والمقدم حازم - جانبًا نهش أحلام اليقظة عن رءوسنا وننظر معجبين إلى محجوب، العقيد حسن إمام متجمد فى وقفته يديم النظر إلى محجوب بغضب مصطنع، بينما يحدث نفسه: «فعلتها وحدك يا كلب»، ومحجوب بادى الرضا يقف منتشيًا لا يقوى على كبح الاغتباط المرتسم على سحنته التى أصبحت بشوشة، ينتظر بغير ندم الجزاء الذى سيوقع عليه .

الهمجى



رأيتهم، خطف عينى وميض أشعة الشمس المنعكسة على سطح الأوعية الزجاجية التى تحتضنها سواعدهم، برطمانات زجاجية صغيرة، عشرة رجال فى بزات كاكية مبهجة، بكل تأكيد كانوا عشرة جنود، لايمكن أن تخطىء عين مدربة جيداً – مثل عينى – فى عدهم، خاصة على هذه المسافة القصيرة.

كانت الشاحنة النصر التى تقلنى قد عبرت البوابة الرئيسية لقيادة الفرقة بعد السماح لها بالمرور، ولولا وميض الأوعية الزجاجية ما انتبهت إلى الجنود العشرة المتجمعين، على مقربة من مبنى القيادة، وقفوا تحت الشمس، كانت السحب السوداء التى تكتلت فوق الأرض قد انقشعت بانتهاء الحرب، مضى أسبوعان أو ثلاثة على وقف إطلاق النار، وأصبح بالإمكان رؤية

السماء بزرقتها الرمادية الباهتة، وأُتيح لشمس نوفمبر أن تتخلل قطعان السحب السمراء الراكضة نحو الجنوب.

توقفت الشاحنة على مسافة أمتار قليلة منهم، وقد انهمكوا بودٍ فى الاستماع بعضهم لبعض، وبدا جليًا أنهم لم يتعارفوا من قبل، التفتُّ إلى المساعد خميس سائق الشاحنة ألتمس عنده إجابة لما أراه ويحيرنى، كان خميس فى ربيعه الخمسينى، تألبتْ عليه بحكم سنين عمره حروب كثيرة، وجدته مثلى يحدق نحوهم مندهشًا، وثبت من الكابينة إلى الأرض، عيناى تمعن النظر بفضول، ما الذى يحمله الجنود بكل هذا الحرص ؟، ما هذه البرطمانات الزجاجية التى تلتف حولها سواعدهم ؟، عن يقين شعرت بأن وجودهم على هذا النحو الغريب، وفى هذا المكان بالتحديد، يرتبط بهذه الأوعية الزجاجية التى يحملها كل منهم، نفس البرطمان، بنفس الحجم، بنفس الحرص، بنفس الاعتزاز.

هل دام تطلعى نحوهم وقتًا أطول من المعتاد ؟، ربما، تسرسب اهتمامى بهم إلى حواسهم، فتوقفوا عن الثرثرة، ناظرين باتجاهى، سمعت صيحته الفرحة قبل أن أراه، انسلخ عنهم مسرعًا نحوى، مهللاً باسمى، ووجدته أمامى، محمد الجزار لم أفاجأ برؤيته، من الطبيعى أن ألتقى به أو بغيره فى نطاق الفرقة، بوغت بهندامه، هى المرة الأولى التى أراه فيها جنديًا كأفضل ما يكون الجندى، كما هو خليق بالرجل العسكرى

شديد الانضباط، شعر حليق، ذقن ناعم، أفرول أنيق ماذا جرى فى الدنيا حتى يتبدل حاله المائل ؟، هل نجحت الحرب فيما فشلنا جميعًا فيه، أتكون المعارك قد صهرته بنيرانها، وخلصته من شوائب الاستهتار والرعونة والفوضى؟، تأملته بحب، كان الجزار أحد أفراد سرية الشئون الإدارية التابعة لى، قبل إحالتى للاحتياط أول يوليو السابق على الحرب، حين ودعت جنودى وودعونى، يومها لم يكن الجزار بينهم، كان نزيلاً وقتها على السجن المركزى كالمعتاد يقضى عقوبة الحبس عن غياب كثيرًا ما تكرر، ظل دائمًا محمد سعيد الصوان (الجزار) على امتداد معرفتى له دخيلاً على الحياة العسكرية، متمردًا عليها، فشلت جهود الجميع أن تخلق منه جنديًا ملتزمًا، تخلى عنه قادة الفصائل التى ألحق بها، قائدًا من بعد قائد: «لايعتمد عليه»، واستبعده قادة السرايا واحدًا بعد الآخر: «غير كفء لايصلح لأية مهمة عسكرية»، فشل كمدفعىٍّ، وجرد من رتبته إلى معمر مدفع، وفشل أيضًا كمعمر، وانتهى به الطواف منبوذًا غير موثوق به بإلحاقه بسرية الشئون الإدارية فردًا لا حاجة إليه، ولا فائدة منه، أسقط فى يدى على غير رغبة منى، وتقبلته على مضض تقبل المغلوب على أمره، نافرًا من سيرته، وضعته بعيدًا عن عينى التى لاتسر بمرآه بمطبخ الكتيبة، مهملاً كسقط المتاع، يقوم بما يريد القيام به أو لا يقوم، وأعفانى غيابه المتكرر لفترات طويلة من عبء المسئولية، حتى حدث ما حدث،

فى ذلك اليوم الجليل الذى هز أركان حياتنا البليدة، والذى أطلقنا عليه جميعًا «موقعة الجمل».

والجمل هنا كأى جمل آخر، من تلك القطعان التى نراها ترعى هنا أو هناك بحرية، كأنها بلا صاحب، نعرف أنها للبدو، وإن كنا لانراهم، لابصحبة الجمال، ولا بدونهم، ونحن متأكدون تمامًا من وجودهم، تزاحمنا أنفاسهم، دون أن تقع العين على أى منهم.

فى اليوم المشهود، كان قطيع منها يرعى بجوار موقع الكتيبة، بهدوء، آمنًا مطمئنًا، لا أعرف ولا يعرف أحد ما الذى دار برأس الجمل صاحبنا، حتى عنَّ له أن ينفصل عن القطيع، مرتقيًا التبة المرتفعة التى تفصل موقعنا عن المرعى، ربما استخف بالكلأ، ورآه أقل مما يسدّ رمقه، فقرر أن يبحث عن مرعى آخر أكثر خصوبة، وأوفر عشبا .

بصلف تطلع الجمل من علٍ إلى الأرض الرملية المنبسطة أمام عينيه الثاقبتين، كان رأسه قد ارتفع أولا أعلى التبة الشرقية التى تحيط بنطاق منطقة إيواء الكتيبة، ناظرًا بترفع وخيلاء إلى مواقعنا دون أن يطرف له جفن، أغرته الأعشاب المنتشرة، فواصل ارتقاء التبة بأبهة وجلال، معتدًا بفتوته وشبابه صعد متمهلاً، لم تغبَ عن مداركه حركة الحياة النشطة بباطن الأرض، ميز جيداً شباك التمويه المنتشرة دوائر دوائر على مدى البصر، لم تفته الظلال السوداء للجنود المتحركين

بحرص تحت الشباك، أو خلف ثنايا كثبان الرمال، شعر بوجودهم المموه المحتشد فى الخفاء داخل الخنادق ومرابض الدبابات، لم يكترث، بقلب وحشى جسور يتعقب منابت الكلأ، حلت له وفرة الأعشاب، فتقدم خطوات أخرى صعوداً للأمام معتلياً قمة التبة، بدا جسمه الشاهق بأكمله مكشوفاً للعيان فوق القمة، قبل أن يتقدم خطوة أخرى ليقتحم أرضنا التفت وراءه بسطوة وثقة منادياً القطيع، خجخج آمراً وجأجأ، ثم انحدر بجسارة غازياً الأرض المعشوشبة.

كان الجنود الثاوون فى ثنايا الأرض قد تنبهوا الآن إلى بدنه الضخم المنحدر نحوهم بقوة وصلف، فتأهبوا لمطاردته وإبعاده عن أرضهم، متريثين حتى يلحقه القطيع، يعرفون أن القطيع الجائع سوف يعقبه، ويعرفون أيضاً ما يجب عليهم فعله، ليست بالمرة الأولى التى يغزو أرضهم قطيع جمال جائع، من واجبهم الذود عن أرضهم وطرد المعتدى، وإجلائه بعيداً عن ثُكناتهم، هم على دراية بما سيتجشمونه من مشقة وعنت، الجمال عنيدة وضارية، ولكنهم متحمسون لمواجهتها، سعداء فى حقيقة الأمر بالوقت الطويل الذى تستغرقه المواجهة، حيث يلطِّف من قسوة الانتظار الممض والكمون المفروض عليهم.

تنقل الجمل بأرضنا، لا يردعه رادع، والجنود يترقبون غزو القطيع، بين الفينة والأخرى يرفع رأسه عاليا، يتلفت حوله بكبرياء وغرور، ثم يواصل التجول، معتداً بجبروته الهائل، غير

مكترث بما حوله ومن حوله، لا يقيم لشيء وزنا، متجاهلاً وجودنا المترقب، نظراته تعكس ما يعتمل بصدره من ازدراء لأمرنا واحتقار لشأننا، من علو رأسه الشاهق يرانا صغاراً أضعف من أن يحسب لنا حسابا، الجنود المترقبون أدركوا بعد فترة طالت أن القطيع لن يتعقبه، وأن عليهم الآن أن يتعاملوا معه كجمل شارد، من واجبهم إجلاؤه عن أرضهم، لم تساورهم حتى ذلك الوقت أية أفكار شائنة، وبدأ الجنود الضاجون بالملل فى تطويق الجمل، رويدًا رويدًا وببطء أحكموا التطويق، تاركين اتجاهًا واحدًا مفتوحًا ليعود منه من حيث أتى، لائذا بالفرار، رفع الجمل رأسه بأنفة، حدَّق نحوهم بثبات وجمود، غير آبه بما يفعلون، لوح الجنود بأياديهم وبعصى أعدوها حتى ينصاع لرغباتهم ويجلو عن أرض الكتيبة، لم يرعو ، تصلبت نظراته، وانتفخت فتحتا منخاره، ثبت قوائمه فى الأرض، وتكورت عضلاته، متحديا، من هانت عليه نفسه ليتقدم نحوى وسوف نرى، عصف الغضب بالجنود، أجج عناده فى نفوسهم روح التحدى، بدت المعركة وشيكة، أغلقوا الثغرة التى تركت أمامه قاطعين عليه سبيل العودة، استكملوا الحصار، الرجال الذين تبدلت خطتهم يضيقون الخناق طامعين، والجمل يواصل الهجوم بعناد وإصرار، صامدًا بمكانه لا يعتريه خوف، معتزًا بقوته، معتدًا بجبروته، مصممًا على الاحتفاظ بالأرض، واثقًا من انتصاره على هذه الحثالة عديمة الفائدة، رويدًا يقترب الجنود، ورويدًا

يزداد احتداد الجمل وعناده، فى اللحظة التى اقتربت الصفوف من مجال قدرته، أسرع من البرق أطبق فكيه على أقرب الجنود إليه، اقتلعه من الأرض وأطاح به، علا صراخ وعويل المصاب، ارتبكت صفوف المحاصرين من هول المفاجأة، تراجعوا خطوتين إلى الخلف متشرذمين، والجمل ينظر شذرًا باستهزاء، فى هذه اللحظة المضطربة والجنود يتراجعون ويعيدون تقدير الموقف، انفرجت الصفوف، وانشقت وبرز محمد سعيد الصوان داخل دائرة الحصار فى مواجهة الجمل، ساد الصمت، توقف الهرج، تفحص الجمل الرجل المنتصب أمامه، رأى فيه مالم نره حتى ذلك الحين، ، شعر بما أخفته عنا لحيته المشعثة وهيئته الزرية وشعره الخشن وأفروله المتسخ وفوضى هندامه، أيقن أن خصمه ليس كباقى الجنود، انتبه للوميض الحاد المنعكس فوق شفرة السكين الطويل، تمسكه قبضة يده على استقامة جانبه، فتأكد أنه أمام عدوه الحقيقى، وأن المعركة بينه وبين خصمه الجديد معركة مصيرية، لابد أن يحسب لها ألف حساب.

بقلب واجف يتابع الجند المعركة الناشبة، كان محمد سعيد الصوان مهيبًا فى وقفته، متجليًا فى صلابته، الرهبة التى يبثها فى الميدان تسرى رعبًا بأجسادهم، لم تكن معركة معتادة تشتبك فيها الأيدى بالأيدى، وتتلاحم الأجسام بالأجسام، لاشىء من هذا، وقف الغريمان بثبات فى مكانيهما، يحدق كل منهما فى عينى الآخر، بعينين تقدحان شرًا يسبر كل منهما غور

الآخر، مصرًا على تبديد صموده وإصراره ونسف مقاومته، كلاهما معتز بجبروته، كان الرجل على خلاف الجمل موقنًا بالظفر، وأن الجمل مهما بلغت قوته سوف يرضخ فى نهاية الأمر لا محالة، مرت الثوانى بطيئة، ثانية بعد ثانية، طويلة كدهر، دقيقة هائلة بعد دقيقة هائلة، أدرك الرجل بخبرته أن الوقت قد طال أكثر من المعتاد، واعترف فى نفسه بأن الغريم الذى أمامه أقوى من نظرائه، احتدم جبروت السطوة داخله، توهجت مكامن القوة والسيطرة بإطراد مع مرور الوقت، شعر الجند بالفزع يمزق نياط تماسكهم، تهدجت أنفاسهم شهيقًا وزفيرًا، تأبطوا شرًا من نتيجة المعركة الدائرة أمامهم، تطيروا خوفًا من هزيمتهم أمام خصمهم المتجبر، مضى الوقت، كانوا أول من شعر برجفة الخوف الطفيفة التى سرت تحت جلد عدوهم المنتصب بشموخ، ثم تبينوا الرعدة التى اعترت سنامه، ثم الرجفة التى هزت مفاصله، باخ شموخ السنم، وتهدلت أوتار التحدى، تهاوت الخيلاء تحت الأقدام، وأطاحت المذلة الطارئة بغرور الفتوة، تبين الرجل فى وقفته الثابتة انكسار عين الخصم، خمدت نار الكبرياء وانطفأ جبروت التحدى، نخرالجمل مقهورًا بمهانة، ربض بقائميه الأماميتين إلى الأرض باستسلام ذليل، دون أن يتحرك الرجل قيد أنملة عن موقعه ألقى بلفة حبال لتصل إلى أقرب الجنود صامتًا، هرع الجندى بها إلى الجمل المسكين، ربط السيقان المنطوية إلى عقبيها، أحكم القيود،

وابتعد مسرعًا، خطف وميض السكين الطويل لحاظ العيون، اجتز النحر، انبجست نافورة الدم، مزقت الحشرجة الأسماع، بعد فوات الأوان أدرك الجمل الخطأ القاتل الذى وقع فيه مذعورًا، حاول النهوض ، بعد أن استفاق من سطوة الجزار، شلته القيود، وأعجزه الوهن الطارئ، دفع الأرض بقدميه الخلفيتين دون طائل، نخر يأسًا، ترنح رأسه، ثم هوى بدنه الضخم متوسدًا الرمال، فى أقل من ساعتين أو ثلاث، كان لحمه الشهى تنهشه أسنان الجنود، الذين تفننوا فى إزالة الآثار التى قد تدل على اقتحامه أرضهم المقدسة.

– أحييك على مافعلت يا محمد.

هز كتفيه لا مباليًا، تابعت : لم يتوقع أحد أن تكون مفيدًا فى أى شيء.

– أفندم، كل إنسان مفيد فى مهنته.

– تتمتع بجرأة المقاتل الماهر، أخطأنا بكل تأكيد فى تقديرك.

رفع نظره برهة ثم خفض عينيه مغمغمًا : لست مقاتلا.

– أنت تقلل من شأنك، أنت مقاتل بالفطرة، أخطأنا الظن حين اعتبرناك فاشلاً لا تصلح لأى أمر.

– سيدى : أنا جزار، مهنتى الجزارة، وسلاحى السكين، هيهات أن أكون غير ذلك.

– من يجيد استخدام السكين بهذه الجسارة، وبتلك الجرأة،

سهل عليه استخدام المدفع.

– أفندم، أنا لا أحب غير السكين، اسمح لى أن أتكلم بوضوح، لا تؤاخذنى إن أخطأت، أنا لا أحب المدافع، وأكره الدبابات، وأمقت البنادق، وأبغض الطائرات، لا أحب ما تعلمونه لنا من أساليب القتال، لا أفهم لماذا تكدسون كل هذه الأسلحة، ولماذا تتفننون فى تنوعها، وتتبارون فى حشدها، لماذا تبددون الثروات الهائلة فى امتلاكها، تخترعون دبابة ثم تبحثون عن صنع دبابة أقوى منها لتدمرها، تخترعون طائرة ثم تجتهدون فى صنع طائرة أخرى تتمكن منها، كيف يتأتى لمثلى أن يفهم ما تفعلون، أقول لنفسى إن كل ما تخترعون من آليات و أسلحة هدفه الوحيد القتل، السكين أفضل من كل أسلحتكم ومعداتكم، السكين يفى بالغرض، أنا لست مقاتلا، لايغرينى القتال بأسلحتكم، ولن أجيد استخدامها أبدا، أسلحتكم لا أفهمها، نعم، أنا أجيد استخدام السكين، ليس بحكم مهنتى فقط، القتل بالسكين متعتى، العنق الذى تطوله السكين هو العنق المقصود، السكين لاتخطئ الهدف أبدًا، لاتقتل النساء ولا الأطفال ومن لا حول ولا قوة لهم، لن أكون مقاتلاً أبدًا بمفاهيمكم، لست جبانا، ولا تنقضى الشجاعة كما رأيت، ولكنى قاتل لا مقاتل.

– يأتى دائمًا دور للسكين فى أية حرب. أيها الهمجى.

– أفندم، عند ذلك فقط سأكون جنديا، وسوف ترى، عند ذلك فقط سأحارب معكم، سأتقدم الصفوف بسكينى، بسلاحى وليس

بأسلحتكم.

– فهمتك الآن، قل لى، ألهذا يتكرر غيابك ؟.

– أعترف لحضرتك، هنا يقتلنى السأم، يحطم دماغى صداع رهيب، تركبنى أمراض الدنيا، أكره نفسى، لا فائدة منى بينكم، ولا آمل فى أن أكون مفيدا، أشعر بتفاهتى، أنا غريب عن زملائى، وهم غرباء عنى، لا أشاركهم أفراحهم، ولا أتفهم مشاكلهم، لا أهتم بالأمور التى يهتمون بها، لا أحلم أحلامهم، القرف يعتصر أمعائى، الزهق يخنق صدرى، يوم أو يومان ثم لا أطيق البقاء، فى كل انتهاء إجازة تصعب العودة على نفسى، أرغم نفسى إرغامًا لأعود، لا أستطيع، فى المدبح يملؤنى الحماس، أتوقد نشاطا، لا أشكو من صداع، لا أحس بإرهاق، أسترد عافيتى، أحب مهنتى، حشرجة الفرائس الذبيحة حين تدندن فى أذنى، أجمل عندى من صوت وردة، أبدان الذبائح تعيد إحساسى المفقود بالقوة والحياة، فى المدبح حياتى، سيدى، ليس هنا مكانى.

– تشتغل فى مدبح ؟

– والدى معلم كبير بالمدبح.

– أى مدبح ؟

– السيدة زينب.

– تعمل مع والدك.

– طعن فى السن، ويحتاجنى بجانبه، أنا الابن الوحيد على

تسع أخوات.

- ولهذا تتغيب لمساعدة والدك.

- لا، حتى لو لم يكن بحاجة لى، أنا أحب مهنتى كما قلت لحضرتك ، لن تكون لى مهنة سواها، المدبح بيتى، والسكين سلاحى الوحيد، هناك يعمل لى ألف حساب، الضعيف فى المدبح ليس له مكان.

بدد يوم الجمل وما أعقبه من أحداث رتابة أيامنا، فلعدة أيام بعده، تابعنا من مرابضنا حيرة البدو، كان مقتفو الأثر يدورون ويدورون، وينتهى بهم الطواف إلى قمة التبة الشرقية التى تطل على منطقة الكتيبة، وتنمحى الآثار، كأنما انشقت الأرض وابتلعت جملهم المفقود، يقفون حائرين يتشاورون فيما بينهم، لم يخف عن حدسهم حقيقة ما حدث لجملهم، متأكدين تمام التأكد مما حدث، ولكن كيف يواجهوننا بدون دليل دامغ، ظلوا يحومون حولنا لعدة أيام وليالى، عل آذانهم تلتقط خبرا، ثم اختفوا عن أعيننا، ولكننا كنا نشعر بأنفاسهم تطوقنا دون أن نراهم.

استمتعنا بالإثارة التى ملأت علينا أيامنا الرملية الخاوية، أصبح بيننا محمد الجزار- هكذا أسميناه - بطلاً لا يقل حظوة لدينا عن أبطال الملاحم الشعبية، نتابع سكناته وهناته بفضول ونتندر بأحواله عن حب، تغيرت نظرتى نحوه، مثل الجميع، والحقيقة أصبح محمد الجزار شخصًا أثيرًا لدى نفسى لأسباب

خاصة، على مشارف مراهقتى كنت أصر إصرارًا طفوليًا على مصاحبة جارة لأمى فى ذهابها لمدبح مصر الجديدة، الأقرب إلى منطقتنا، كانت كثيرة التردد، وكنت حريصًا ألا تفوتنى زيارة من زياراتها للمدبح، شغوفًا بما أراه هناك، دائمًا تبهرنى الباحة الأمامية وحدها دون غيرها من مواقع وأركان، كان النهار يبدو فى الباحة الأمامية أقوى نورًا وبهاء، هكذا كنت أراه وقتها وهكذا أتذكره الآن، على الجوانب تقف المواشى والبهائم، تمضغ بنهم ما وضعوه أمامها من أعلاف، غير آبهة بما يدور وسط الباحة من تقتيل، لا يطرأ على بالها إن هى إلا دقائق قليلة حتى تلقى حتفها المحتوم، أقف على جانب من جوانب الباحة أشاهد ما يجرى منبهر الأنفاس، متعجبًا، كانت الكباش العظيمة تكتفى بالمأمأة المرتعبة مستسلمة لأيادى الرجال الفتية خائرة القوى، لا يلقى قاتلها عنتًا أو مشقة، تنحرها السكين المشحوذة بسرعة البرق، وتنتقل سريعًا إلى غيرها، وغيرها، تكتفى بتحريك أرجلها احتجاجًا والدم يتدفق نافورة حمراء، ثم يلفها صمت الموت بعد حشرجة قصيرة، أما عجول الجاموس الصغيرة فيعتريها الذعر، يربت الرجال المحنكون، بلطف على رأسها، يمسدون ظهرها، وكان هذا كافيًا لبث الطمأنينة فى بدنها المرعوش، فيوسدونها الأرض مطمئنة، ويجهزون عليها، تنخر لبضع ثوانى قليلة وتلفظ الأنفاس، والرجال الغادون الرائحون يبدون فى عين طفولتى عماليق

فارعى الطول، حركاتهم الدائبة تسحر لبى، وتبلغ إثارتى قمتها، عندما يتعلق الأمر بفحول الجاموس.

– البهائم التى تعدت مرحلة الطفولة تعى مايجرى، تستشعر الخطر، تدرك بوعى كامل الموت المحدق بها، تستنفر غاضبة، تحتد، تتحدى، تقاوم هائجة، تهاجم بوحشية، تحتشد قطيعًا للدفاع عن وجودها، الجزارون المتمرسون يتعاملون معها بحذر، يعدون حول القطيع الوحشى صائحين بصخب مجلجل، حتى يتملك الخوف أواصرها، عندما يدب الفزع فى الصفوف، ينهار تماسك القطيع، كل منها يحاول أن ينجو بنفسه، أن يفلت من قبضة القصَّاب، ويحين الوقت للانقضاض، ينحرون أكثر الفرائس فزعًا، بعد سكون الضجة، تعود باقى البهائم إلى مضغ العلف بهدوء، أتعجب، كيف فاتها أن ما جرى مع غيرها سيحدث لها بعد لحظة أو بعد عدة لحظات، كانت ملاحظتى كافية لنزع الشفقة من صدرى، أنظر بإعجاب إلى هؤلاء الرجال ذوى الهمة والسطوة والجبروت بإكبار وإعجاب، وأكاليل الغار تتوج رءوس الظافرين، فوق أجداث الذبائح تعلو هامات الجزارين، أشاركهم نشوة الجبروت التى تعتريهم، ولو سئلت يومها عما أحب أن أكون عليه فى المستقبل لأجبت بكل تأكيد أحب أن أكون جزارًا، ألهذا أصبح محمد الجزار أثيرًا لدى، ربما، عميقًا بأغوارى، أشعر تمامًا أننى مثله، لو خيرت بين المدفع والسكين، لاخترت السكين.

رويدًا، عادت الأيام الرملية خاوية كما كانت، إلا من وطأة الانتظار الممض، تصعد شمس إلى غمد سماء وتنحدر إلى سواد ليل، لتصعد شمس ثانية لا تأتى إلا بانتظار آخر ممض، يتعاقب ليل ونهار وليل ونهار فى عام الضباب، عام الموت، كم مر من زمن قبل أن تقع الطامة الكبرى على رأس الجزار. قل مر دهر غير منقوص، وقف محمد الجزار أمامى منهارا، كبنيان خرسانى متين دمرته فجأة انفجارات القنابل، يرافقه جندى مدجج بالسلاح، كان الجزار حينذاك موضوعًا تحت الحراسة، إلى حين ترحيله للسجن المركزى، ظل آبقًا عصيًا على الانضباط، مارقًا على النظام، والقانون ليس له رقة عواطفنا ليرحمه، والشجاعة لاتشفع لصاحبها يوم الحساب.

ذليلاً منكسرًا وقف محنى القامة أمامى، غمغم معولاً : مات المعلم، تطلعت إليه مستفهمًا، واصل العويل والغمغمة : توفى والدى.

- البقاء لله وحده.
- توفى فجر اليوم.
- لله العزة والدوام.
- أنا فى عرضك يا أفندم.
- لا أفهم.
- أنا وحيده كما تعلم.
- لا أفهم ما تقصد.

– لابد من حضورى الجنازة عصراً.. وتلقى العزاء مساء.

– مستحيل طبعًا.

– أبوس يديك.

– أنت تعلم أن ذلك مستحيل، فى أية لحظة ستمر سيارة الترحيل لاستلامك.

– اعمل معروف.

– أنت لا تريد أن تفهم، قائد الكتيبة لايملك صلاحية الموافقة، حتى قائد اللواء لا يملك الحق فى الاستجابة لطلبك.

– أعرف.. أعرف كل هذا.. أعرف أنه المستحيل.. أعرف أننى لوهربت سأتسبب فى محاكمة زملائى المكلفين بحراستى، لا أريد أن أضر أحد أو أن يعاقب زميل بسببى.

– متفقون.

تابع منتحبًا: لا أطلب تصريحًا.. لا أطلب إذنًا.. كل ما أطلبه أن تغمض عينيك عنى حتى السابعة صباح الغد.

– عند ذلك تقع المسئولية على رأسى.. وأحاكم أنا، أنت لاتفهم شيئًا حتى الآن، القانون العسكرى لايستثنى أحدا.

– لن يحدث شىء، سيارة الترحيل تأتى دائمًا بين التاسعة والعاشرة صباحا.. الساعة الآن الحادية عشرة، لن تأتى اليوم قطعا، باكراً قبل السابعة سأكون موجوداً.

– لايمكننى أن أوافق.. ستضر بزملائك وبى.

– ثق بى.. أفندم.. لوجه الله وافق، قدِّر ما أنا فيه.. أشفق

على مصابى.. أتوسل إليك.

– ما تطلبه صعب.. عسير جدًا أن أوافق.

– زملائى موافقون.. اسألهم، أرجوك، لن أتسبب فى أى ضرر يلحق بهم تأكد من ذلك.. أبوس قدميك.

– المسألة ليست بهذه السهولة.

– أعرف وأشعر أنك تثق بى، هم كذلك يثقون بى.. قبل السابعة صباحًا سأكون موجودا.

– ليست مسألة ثقة.. أو عدم ثقة.. أنت لاتفهم القانون أبدا.

– لكننى أفهم حق الزمالة، أقدر مروءتك وأقدر شخصك تقديرًا بالغًا.. قد لا أستحق ثقة أحد، ولكنى أتوسل بكل عزيز لديك أن تشفق علىَّ فى محنتى.

– لا أثق فى عودتك يا جزار، لم تفعلها مرة واحدة أثناء خدمتك الطويلة.

– هذه المرة مختلفة.. والله العظيم.. مختلفة.. لا أطلب إلا أن تغمض عينيك.. لا تسأل عنى..، زملائى سيتكفلون بالباقى.

– السابعة صباحًا.

– قبل السابعة.. سأكون موجودًا. انحنى ليقبل يدى.. سحبتها من بين يديه : لن تصبح جنديًا فى يوم..

وتشهَّدت فى الصباح الباكر عندما رأيته، انحنى على يدى يهم بتقبيلها، تمتمت.. الجنود لايتصرفون على هذا النحو.. لن تصبح جنديا أبدًا يا جزار.

- أخيرًا يا جزار صرت جنديًا، بدَّلتك الحرب، فعلت المعارك مالم نستطع فعله، قلت باشًا وأنا أصافحه، أشد على يده، عيناى حائرتان، تنتقلان بين قيافته الكاكية، وهندامه العسكرى المعتنى به، وبين البرطمان الزجاجى الذى يحمله، يشف البرطمان عن سائل مائى شفاف، نفاذ الرائحة، تحوم به قطع جلدية سميكة بيضاوية الشكل بطول الإصبع، لم أستطع تبين كنهها، سألت بفضول: خبرنى أولاً ما هذا البرطمان الذى تحمله كباقى زملائك، ما بداخله؟.

ابتسم باعتدادٍ مجيبًا بزهو : خمسة أزواج من الآذان.

- ماذا ؟

- خمسة أزواج من الآذان بالتمام والكمال.

أعدت التحديق فيما يحتويه البرطمان، آذان.. لاتشبه الآذان.

- الآذان المصلومة تفقد شكلها، ولكن لو أحصيتها ستجدها خمسة أزواج.

- ليتنى أفهم.

- دائمًا كنت تحدثنى بأن للسكين دورًا لابد أن يأتى فى أية حرب، ببساطة جاء دور السكين، وأتيح لى أن أخوض الحرب التى تخصنى.

- أية حرب ؟ لقد تم وقف إطلاق النار.

- بدأت حربى الخاصة بإعلان وقف إطلاق النار، أخبرونى بأن قائد الفرقة رصد ريالاً جائزة لكل من يأتيه بزوج من آذان

القوات التى تحتل الثغرة. هكذا بدأت الحرب التى أجيدها عن حب، وعلى مزاجى.

– زملاؤك مثلك.

– بالنسبة لى هم هواة كل منهم لا يحمل غير زوج واحد، ذلك لايقلل من شجاعتهم، إنهم رجال شجعان، ربما تنقصهم الخبرة، عليك إذا أردت استخدام السكين أن تتعلم كيف تثير الذعر فى قلوب الفرائس، الفريسة لابد أن تموت من الخوف قبل أن ينحرها السكين، هم لم يتعلموا ذلك كما تعلمته، ولكنهم شجعان ورجال بكل تأكيد، ربما أجرأ وأشجع منى، أن تتسلل فى الظلام وحدك، تقتحم بمفردك التحصينات وأنت لا تحمل غير سكينك، أن تتربص بفريستك وتتحين فرصة الانقضاض، ليس عملاً سهلاً يستطيعه أى رجل، وبعد كل ذلك عليك أن تعود إلى قواعدك بنفس الهدوء الذى اقتحمت به، صعب جدًا كما ترى، إنهم بكل تأكيد رجال شجعان.

– لا أشك فى ذلك، ولكنك الوحيد من بينهم كما أرى الذى تسلل أكثر.

– لا، هذه حصيلة غارة ليلية واحدة، الحرفة تحكم، جئنا من كل صوب لتسليم ما نحمل وتسلم الجائزة، قيل لنا إن القائد سيقابلنا شخصيًا، هل تتصور ذلك، وها نحن ننتظر لقاءه.

تركت الجزار لزملائه، دخلت مبنى القيادة لإنهاء مأموريتى، استغرق الأمر منى الساعة وبضع الساعة، عندما خرجت إلى

ساحة المبنى رأيته يقف وحيدا منزويا بانتظارى، ترتسم على سحنته وقسمات وجهه دلائل عدم الرضا، وظلال القنوط.

– انصرف زملاؤك يا جزار.

– كما ترى انصرف الرجال، قلت فى نفسى لابد من انتظارك.

– أسعدك اللقاء إذن، وفزت بالجائزة.

هز رأسه بأسى مجيبًا، أما اللقاء فنعم، وأما الجائزة فلا، على غير ما توقعناه كان اللقاء، صافحنا القائد بجفاء متجهما، ولكنه صافحنا، قال أشياء لم تدر لنا ببال، لو دارت ببالنا لما أتينا، صدمنا، حدثنا معنفا، قال بأن العسكريين ينفذون الأوامر، وليس من حقهم اتخاذ قرار الحرب من تلقاء أنفسهم، قال إن العسكريين بمن فيهم هو ليس من حقهم مواصلة الحرب بعد وقف إطلاق النار، قد انتهت الحرب، وما وصلنا عنه من تعليمات ووعود لم يحدث، قال إنه واثق من نخوتنا وشهامتنا، ومتأكد من شجاعتنا، فكل رجال فرقته شجعان، وأنه يعتز برجاله جميعًا ويفخر بهم، ويعتز بنا أيضًا رغم ضلالنا، وهو يقدر أن ما ارتكبناه من جرم صدر عن قلب جسور متحمس للتضحية بالنفس فى سبيل الواجب، وأنهى الحديث بأنه سيكتفى بتوجيه اللوم لنا هذه المرة، واستلام غنائمنا، ولكنه لن يكافئ الخارجين على النظام، تصور نحن خارجون عن النظام.

– ياللأسف. خسرتم الريالات يا جزار.

– خسرنا التقدير الذى نصبو له، صمت برهة وتابع، أصارحك بأننا جميعًا شعرنا بأنه رغم تجهمه ولهجته الصارمة يعتز اعتزازًا خفيًا بما فعلنا، وأنه رغم جفائه وقسوته فخور بنا، أصدقك القول عند استلامه برطمانى أحصى بطرف عينه سريعًا حصيلة غارتى الرائعة، تصور، شعرت بقبضة يده تضغط بقوة على يدى وهو يصافحنى كما لوكان متواطئًا معى.

– لن يغير ذلك من الأمر شيئًا، ماذا ستفعل أنت الآن؟.

– أنا، وماذا بمقدورى أن أفعل، العدو على بعد خمسمائة متر منى، على مرأى من عينى، – صمت – أفندم عندما لا تستطيع المدافع أن تعمل، فعلى السكين ألا يكف عن العمل.

الثلاث ورقات

انزلق اخضرار عينيه على صفحة وجهى، نظرة شاردة عمياء ارتفعت وهوت دون أن ترانى، مرتدَّة ثانية لتستقر فوق ساقيه الممدَّدتين، جالسًا جلسته التى أصبحت أثيرة لديه، عاكساً وضعه فوق فراشه، حتى لا تغيب عن ناظريه صورتا صفى ويحيى، المتشحتان بالسواد، تملآن فراغ الحائط الباهت حزناً، خلف شباك سريره العتيق، فيما يفكر العجوز؟، ما الذى يشغل باله، ويستغرقه كل هذا الاستغراق عمًّا حوله؟، يداه تجسجسان فخذيه الضامرتين، وقد كشف عريهما طرف جلبابه المرفوع، انتظرت هنيهة – عله ينتبه لوجودى – واقفًا على باب الغرفة، كررت ندائى غير آملٍ فى الرد: «صباح الخير يا بابا»، سقط

صوتى فى الهوة السحيقة التى تفصلنا عن بعض، وتلاشى الصدى فى الفراغ المعتم الممتد بيننا بلا حدود، ظل على حاله مطأطئ الرأس، يتأمل بذهول وشفقة ساقيه العجفاوتين.

ليس أبى!!، هذا العجوز المستكين الخائر المستسلم للوهن، الجالس أمامى فوق فراشه وفى غرفته، لا يمكن أن يكون أبى، هو شخص آخر لا أعرفه، يشبهه حقًا كل الشبه، ولكنه ليس هو بكل تأكيد، لثلاثة أيام خلت أُنكره بينى وبين نفسى، أبى الذى أعرفه لم يعد له وجود، تخلَّى عن جسده لساكنٍ جديد، بدا هيكله الضخم كالقصر المهجور، غادره أصحابه، حملوا الثمين والغالى والنفيس وهاجروا، تركوه خاويا، إلا من المخلفات، شخصيته القاهرة رحلت، انسلَّت من بنيانه الهائل بهدوء، انطفأت مصابيح القوة العارمة التى تحيطه بهالة نور شاسعة الإبهار، اضمحل مجال سطوته الآسرة، وتبدد تأثيره الساحر على كل من كان يقترب من دائرة انتشاره، وخيَّم الظلام والفراغ المعتم، من يومين سألتنى أمى باستغراب يائس: قدرى ماذا يحدث لأبيك؟، انتبهت ساعتها إلى أن ما يقضُّ شعورى حقيقة ماثلة للعيان، يستشعرها غيرى كما أستشعرها، لست واهمًا، أجبتها فى نفسى: ليتنى أعرف أين ضاعت العظمة؟، وكيف تبدد الشموخ؟، ولم أفتح فمى بكلمة.

آخر عهدى بأبى الذى أعرفه كان، قبل تلك الأيام الثلاثة المعتمة، جالسًا كعادته بعد المغرب فى الشرفة الأمامية المطلة

على حديقة منزلنا الصغيرة، وصلنى صوته الرخيم المتهدِّج، وأنا أهبط الدرج من سكنى بالطابق الأول، أو كما يصرُّ على تسميته بشقة صفى، رغم مرور ما يناهز السنوات الثمانى على استشهاده، استهوانى إنشاده الشجى قبل أن أراه: **«قلبى يحدثنى بأنك متلفى... روحى فداك عرفت أو لم تعرف، لم أقضِ حق هواك إن كنت الذى... لم أقض فيه أسى ومثلى من يفى، مالى سوى روحى وباذل نفسه، .فى حب من يهواه ليس بمسرف، فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى.. يا خيبة المسعى إذا لم تسعفِ»**: «مساء الخير يا بابا»، كفَّ عن الإلقاء، انخفضت عيناه المحلِّقتان فى الفضاء، وحطَّت على وجهى حطة الطائر الجارح، لم يكن يتلو من كتاب، سقط قناع الرضا عن وجهه، تغضَّنت أساريره، تبددت موسيقى النشوة من صوته، اتقدت جمرتا مقلتيه، وهو ينظر نحوى متجهما، نظراته تفصح عن اتهامه الصامت الذى لم يتخلَ عنه منذ زواجى من أرملة صفى، ردَّ تحيتى باقتضاب، سألنى بغير اهتمام لمجرد الكلام: عدت من سفرك؟.

أفضت فى الإجابة حتى أُشغل الفراغ الممتد بيننا: ظهر اليوم عدت، وجدت من الضرورى أن أسافر بنفسى مع الفوج، لأطمئن على عودته سالمًا لبلاده، الأحوال سيئة منذ اغتيال الرئيس، وعدت اليوم من طابا بمفردى، الأفواج السياحية تحجم عن المجىء فى مثل هذه الظروف العصيبة التى تمر بنا.

بدا سئمًا من إطنابى: لا تقلق، ستستقر الأمور سريعاً.

– أرجو ذلك من صميم قلبى، طابا لا تغريهم. تبهرهم القاهرة، يثير دهشتهم اتساع النيل «كل هذه المياه»، يمجدون الأهرامات، يقفون أمامها بخشوع، مولعون بزيارة أبى حصيرة، من المتوقع أن تمر فترة طويلة قبل عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه.

هز رأسه هزة من يرفض الأمر برمته، زم شفتيه امتعاضاً مما أقول، وانصرف عنى مواصلاً الإنشاد: **«يا مانعى طيب المنام، ومانحى ثوب السقام»**، تركته أجرجر اكتئابى داخلًا للداخل.

فى غرفة المعيشة جلست أمى تلاعب عبد القادر الصغير، يتشاغبان بحب، يتضاحكان بحبور، أنساها الصغير بشبهه الشديد لأبيه – صفى – حسرة الثكلى، تلهيها شقاوته عن التفكير، تكاد لا تتذكر صفيًا أو يحى إلا لِمامًا. قبَّلت رأسها أحييها، أحبها وتحبنى، ربما أكثر من حبها لأخوىَّ، أنا الأقرب لقلبها؛ لأننى أذكرها بأبيها – جدى، الذى أشبهه شبهًا قويًا. لون البشرة، طول الوجه، الأنف، الذقن المدبب، الانحناءة الخفيفة للكتفين، العينان الملونتان، لم أرث من صفات أبى وعائلته إلا القليل، أختلف فى ذلك عن صفى ويحيى، أحيانًا تساورنى الشكوك بأن شكلى وشبهى الشديد بجدى لأمى كان مبعث حنق أبى الدائم، وسر ازوراره عنى، وعدم اعتزازه بى، فى

مناسبات عديدة أكد بالقول ما يساورني: «أنت لأمك، وصفى ويحيى لى»، سألتنى أمى وهى تواصل مداعبة عبد القادر الصغير: «رأيت أباك»، - «رأيته»، ضحكت لتضجّرى، صوته الرخيم يصل إلينا من الخارج، مستمر فى إنشاده الشجى: **«أهفو لأنفاس النسيم تعلّة... ولوجه من نقلت شذاه تشوُّفى»**، ابتسمت ساخرة: أبوك اليوم منشرح الفؤاد كمن وقع فى حب جديد، لم يهد الزمن قواه، لن يشيخ، يظن نفسه صغيراً، سألتها مكروب النفس، أسايرها: أتظنينه يحب حقاً؟!، «طوال اليوم لم يكف عن الغناء والغزل كما ترى»، كان يجمعنا أنا وأمى تواطؤ خفى ضده، هى مثلى مقهورة، تعودت الاستسلام لجبروته، والرضوخ لما يريد، ولما لا يريد، تسعدها فلتات لسانى حين أهجوه منتقداً تصرفاته، أعبر أمامها بحرية عن مكنون مشاعرى نحوه، وأحياناً أتعمد ذلك لأرضيها، أكرهه كراهية هائلة، وأحبه حبًا عظيمًا لنفس أسباب كراهيتى له، أمقت خوفى أمام جبروته، فزعى من نظرة عينيه الثاقبتين تستجلى بيسر خبايا الأعماق، كرهت سطوته، وكرهت خضوعى له، وضعفى أمامه، وفى نفس الوقت أنبهر بجلال القوة المنبعثة من شمسه التى لا تغرب، متمنيًا فى أغوارى السحيقة لو أكون مثله، لو أمتلك بعض ما يميزه من قدرات خارقة، وصفات فريدة، متناسياً امتعاضى وعنائى من تلك الصفات.

سألتنى: هل وجَّه إليك ما يكدِّرك؟

– كالعادة، دائمًا يكدِّر صفوى بغير كلام، عيناه لا تكف عن تأنيبى ولومى، مرت سنوات عديدة على استشهاد صفى، ومرت سنوات أربع على زواجى من أرملته، لم يدر بباله أنه لولا زواجى منها لتزوجتْ من غيرى، وحرمنا كلنا من عبد القادر الصغير، ولما استطاع هو الاحتفاظ به بأحضانه، ولحرم من رؤيته، وهو المتعلق به المرتبط بوجوده، أبى لا يقدِّر جميل ما فعلت، لا يعترف بنبل مقاصدى.

– لا، أبوك يقدِّر تصرفك، ويدرك ما تقوله تماما، لكنه لم يستطع إلى الآن أن يتقبل فكرة أن يحل أحد محل صفى، أو ينام على الفراش الذى كان ينام عليه.

– الحياة لا تتوقف عند موت أى شخص مهما كان عزيزاً على النفس.

– هو يقول ما تقوله بالحرف «الحياة أقوى من الموت»، الأمر صعب على نفسه، قدِّر مشاعر الأب، ولا تبتئس.

– لم أتزوج إلا بعد موافقته،

قلت: «يا أبانا أريد رأيك فى أمر يشغل تفكيرى، وأرجو ألاَّ تستاء منه، رشقنى بنظرة كالنصل أدركت ما سوف أقول قبل أن أنطق، تساءل بحزن: خيرا!، فقلت باستخذاء: أفكر بالزواج، هز رأسه مجيبًا بأسى: لا رأى فيما أحله الله – صمت مغموما – أرجو أن تحسن الاختيار، ارتج علىّ المنطق، تشتت تفكيرى، وتهافت الكلام، بصعوبة واصلت الحديث: الاختيار مفروض

فرضا، لا حيلة لى فيه، هو واجب كريه على نفسى، لابد أن أؤديه، يحتاج عبد القادر الصغير لأب، وأحتاج زوجة، نكس رأسه مداريًا عينيه: لله الأمر من قبل ومن بعد، ما قدِّر سيكون شئنا أم أبينا، لملمتُ شتات نفسى، أستحضر على لسانى المبررات التى أعددتها لترضيه، لا رغبة عندى إلا أن ينشأ بيننا ابن أخى رحمه الله رحمة واسعة، لن أسامح نفسى لو تركته عرضة لعوادى الزمن، للظروف الظالمة، ولمحن الأيام، يا أبانا كان صفى بالنسبة لى أكثر من أخٍ أكبر، صفى يا أبانا قدوتى، النبراس الذى أهتدى به فى ظلمات حياتى، صفى لو تعلم مرشدى ومعلمى وصديقى قبل أن يكون شقيقى الأكبر، أحس بمسئولية كبرى لتربية ابنه - ابنى، ورعايته، لا أقل من ذلك أفعله إحياءً لذكراه الغالية التى لا تنسى، أجابنى بخفوتٍ معتم: «الخير فيما يختاره الله»، فى صلاة العشاء رفع صوته يجهر بالتلاوة أعلى مما تعودنا عليه﴿ **«قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين، وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾.

- أنت تعذب نفسك - قالت أمى وهى تلاحق عبد القادر الصغير بنظراتها الحانية - مرت سنوات، وسنوات، ألست سعيدًا بزواجك؟

- لم أشعر بفرح، لا أحس بسعادة صافية من التنغيص.

– لو لم يكن مقتنعاً لما وافق، لا توجد قوة على ظهر الأرض ترغمه على فعلٍ أو قولٍ غير مقتنع به، أبوك عنيد كما تعلم.

صوته الآسر يواصل الإنشاد الشجى. موسيقاه تفد إلينا من مجلسه **«فسمعت ما لم تسمعى، ونظرت ما لم تنظرى، وعرفت ما لم تعرفى، ما للنوى ذنب ومن أهوى معى.. إن غاب عن إنسان عينى فهو فى»**، انقطع الصوت، وكف أخيراً عن الإنشاد، «يالها من ذاكرة – قلت – لم يضعفها زمن، ولم تذهب بشبابها شيخوخة»، أجابت أمى: أبوك ما شاء الله لا يؤثر فيه زمن، ولا تدركه شيخوخة.

عندما خرجت وجدته ساهمًا يرنو إلى السماء المعتمة الشاهقة الارتفاع، يحلق بأفكاره بعيدًا إلى حيث لا ندرى، ويتأمل فيما لا نعلم، قلت لأشغل فراغ الانصراف:

– إلقاؤك جميل يا أبى.

– ليست المرة الأولى التى تسمعنى..

– أثرتَ بالغزل غيرة أمى، تقول إنك عاشق جديد..

– بل سلطان العاشقين، من قديم، لا من جديد.

– مُتعت بالصحة والعافية دائماً..

مط شفتيه وهو يحدِّق فى وجهى مستنكفا: ألم تسمع عن شخص يسمَّى ابن الفارض.

– كلا، ما شأنه؟.

– لا شىء يا بنى، لا شىء.

كانت هذه هى المرة الأخيرة التى رأيت فيها أبى الذى أعرفه منذ ولدت، يئست من وقوفى على بابه، أيقنت أنه لن ينتبه لوجودى، لماذا أُشفق عليه كارهًا ما طرأ عليه من ضعف، لماذا أتمنى أن يفيق من غيبوبة تأملاته، ويعود قويًا جبارًا عاتيًا كطبيعته، لماذا الحسرة لما ألمَّ به، أنا الذى احترقت بنار جبروته، ودمرتنى قسوته، ليته يلتفت لحظة واحدة نحوى، ليته يسبنى، يؤنبنى، يلومنى، يعاتبنى، يزجرنى، أى شىء، أى شىء، غير هذا الشرود الصامت اللعين الذى يلفّه، وذلك الصمت الرهيب الذى يحتويه.

تأهبت لأنصرف يائسًا، لن ينتبه لى، لن يستيقظ من غيبوبة التأمل، وعندها جاءنى صوته خافتاً ضعيفاً مشحوناً بالحيرة والذهول: «قدرى».. تسمّرت مكانى: «أين ذهب اللحم يا بنى»؟، كان مايزال يجسجس فخذيه متحيرا، لم يرفع بصره نحوى، وسقط ثانيًا فى الصمت المطبق والذهول الملعون، واستدرت على كرهٍ دالفًا إلى أمى.

أين ذهب اللحم يا عبد القادر، كيف أصبحت ساقاك عجفاوتين، دون أن تشعر، لم يصبك فى عمرك القصير مرض، لم تشكُ إلا من نزلات البرد التى يشكو منها كل الأطفال، لم تقعدك علة، ولم تلزمك الفراش وعكة، مازلت حتى الآن تأكل هنيئاً، وتشرب مريئاً، وتروح وتجىء مفعمًا بنشاط الشباب،

وبحمد الله لم تعوزك فاقة، أغناك الله بالستر، ولم يحوجك لمخلوق، أشبعتَ شهوة البطن بما لذ وطاب، لم تحرم من الطيبات، فلماذا تضمر ساقاك، كنت دائمًا أقوى من النوائب التى تقصم ظهور الرجال، لم تهتز لمصيبة، بجلد تحملت الشدائد، واجتزت بالصبر المحن، واجهت عوادى الحياة بقلبٍ عامرٍ بالإيمان، لم يعرف الحزن طريقًا إلى قلبك الشغوف بمسرات الحياة ومباهج الدنيا، مازلت صغيراً يا عبد القادر، عاش أبوك تسعين ربيعا، ووافاه الأجل المحتوم وهو فى الغيط، يقلب الأرض بعنفوان الشباب، يحرث ويبذر ويسقى ويجنى، يبيع ويشترى، يذهب ويجىء، يدب بنشاط جسدٍ لا يعرف الكلل، وعاش جدك مثل أبيك تسعين سنة فتيًا عفيا، موفور القوة، متألق البهاء، ومات جدك لجدك مثل آبائه وآباء آبائه فى التسعين، أنت من سلالة صلبة عريقة الشموخ لم تنحنِ لكر السنين، ولصروف الزمن، قدرها غير قدر الناس، فريدة فى نوعها، مازلت فى ريعان الرابعة والسبعين وأمامك عمر مديد حتى يوافيك الأجل مثل آبائك وآباء آبائك، هل خانك الزمن يا عبد القادر؟، هل حقًا صرت عجوزًا، وأنت لا تزال فى ميعة الصبا وفوران الشباب، أين ذهب لحم فخذيك، كيف اضمحلت عضلات ساقيك؟، كيف سرقت من خلف ظهرك؟، تسلل اللص الخسيس تحت إهاب الجلد دون حس، وسلبك أعز ما تملك فى الوجود، بدنك الرائع يا عبد القادر، تاركًا بنيانك الضخم عظامًا نخرة، لا قيمة للنفايات

التى تركها لك، آه يا عبد القادر، الحسرة تفتك بالقلب، كنت تزهو معجبًا ببدنك العملاق المتناسق، تحسدك العيون عليه، تزهو بفتوتك، تياهًا برجولتك، فخورًا بفحولتك، أنظار النساء تحلِّق حولك كالفراشات المسحورة بالنور، تحط على كتفيك، تتراقص على صدرك، تلسوعك تنهدات الأشواق، وتأوهات الرغبة، وكم عرفت خلال حياتك القصيرة يا عبد القادر، خمسمائة جميلة، ستمائة؟، اللاتى يحفى الرجال خلفهن ويفشلون فى الحصول عليهن، يتهافتن عليك، يرتمين بأحضانك ما إن تشير إشارة بسيطة، مجرد إشارة بسيطة غير ملحوظة، يلبين النداء متعجلات لحظة الوصال، تمكن منك الزمن، وغدرتْ بسحرك الأيام، استشهد صفى ويحيى، واستشهدت معهما، شختَ قبل الأوان، يا حبيبى يا صفى، ويا روحى عليك يا يحيى، لولا موتكما لما استطاع الزمن النيل منى، أنا شهيدكما أنا شهيد مثلكما، أدفع ضريبة الدم التى دفعتماها، أدفعها حيا، تحولتُ أشلاء كما انتهيتما أشلاء، آه عبد القادر، ذهب صفى ولم يعد، وذهب يحيى ولم يعد، ذهبا وذهبت فتوتك وقواك، يا حسرتى عليك يا صفى، ويالوعتى لفراقك يا يحيى، ذهب صفى وذهب يحيى يا عبد القادر ولم يبقَ لك فى الدنيا غير هيكلك المهيض، وروحك المكلوم، وقدرى الخائر، ولكنه ولدك أيضًا يا عبد القادر، الآن لا تستطيع أن تكابر، مثلما كنت تكابر فى عنفوانك، تدرك الآن أنك مثل باقى الناس يصيبك ما يصيبهم

من ضعفٍ، ويعتورك ما يعتورهم من وهن، لست فوق القانون الذى يخضع له سائر الخلق، تعترف الآن بقدرى، ابن ضعفك المكنون، الضعف الذى لم تعترف به إلا بعد سيطرته عليك، حملت بذرة الضعف بجوفك فنمت ونمت دون أن يلحظها غرورك، ها هو يقف على بابك، بعيونٍ لا تعرفك: «قدرى، أين ذهب اللحم يا بنى».

صفى يطل عليك من فوق الحائط، ولا يجيب، لمن تركتنى وحدى يا صفى، يا ولدى، وصديقى، ما من شىء يعوض خسارتى الفادحة بموتك، لا يوجد فى الدنيا ما يعزينى، وتركتنى مثل أخيك، يا يحيى، تغيرت الدنيا بعدكما، ولا يجدينى عزاء أو تعويض، لن يفيدنى أى شىء، أى شىء لن يجدى، ما من شىء يفيد، لا فائدة ترتجى يا عبد القادر.

– أرسلوا شيكات التعويض يا أبانا.

قال قدرى، قلت: كنوز الدنيا لا تعوض مصابى بأخويك.

– المبالغ طائلة.

– أموال الدنيا لا تساوى قلامة ظفر أحدهما.

– يا أبى!!، شدَّ الله أزرك، وقوَّى إيمانك لتحمل ما أنت فيه، ولكن الرفض لا يرد قضاء، ولن يعيد من ماتوا.

– أخواك أحياء عند ربهم، وعندى.

– يا أبانا لا راد لقضاء الله، مثلنا مثل آلاف غيرنا،

والتعويض مجزى.

– متى تفهم يا ولدى؟، التعويض يدفع عن الذى مات، فكيف أقبله عن الذى لا يزال حيًا بصدرى، حتى لو غاب عن عيونى.

– يحيرنى منطقك يا أبى، لِمَ لا تفكر كما يفكر الذين يعيشون فوق الأرض، ما من سبيل أمامنا للرفض، أرشدنى لما يرضيك، أطيعك.

– خذه كله لو يرضيك أخذه، انتفع بالمال فيما كانا سينتفعان به لو عاشا.

يا أسفاه عليك يا صفى، ويا أسفى يا يحيى، وبئس اختيارك يا قدرى، ضاقت بك السماوات والأرض، فلم ترَ أفضل مما اخترت، بعت أخويك لقتلتهم، اشتريت بدمهما سعادة من قتلوهم، ارتضيت لنفسك دور العبد، ومهنة الخادم، تعمل ذليلاً لوفودهم المتتالية فوجًا سياحيًا، من بعد فوج، يطئون الأرض نفسها التى فى سبيلها استشهد أخواك، استسلمت للغواية وصافحت قاتليهم. **«كيف تخطو على جثة ابن أبيك؟ كيف تنظر فى يد من صافحوك فلا تبصر الدم فى كل كف؟ إن سهما أتانى من الخلف، سوف يجيئك من ألف خلف، ...، هل تساوى يد سيفها كان لك، بيد سيفها أثكلك»**، ضاقت بك السماء والأرض يا قدرى فلم ترَ الخير إلا فى السياحة، قلت يا بنى كان صفى يحلم بدنيا جديدة، ببلد سعيدة، تخضر فيها الصحراء البور، وتنبت الأرض الجرداء، قال: يا أبى أفق من الوهم، نحن لسنا

بلداً زراعية، قلت: يا ولدى كان جدك فلاحا، وجد جدك فلاحا، لم يكن لآباء الآباء غير الأرض منذ آلاف السنين، فماذا استجدَّ على الكون حتى ننكر الفلاحة؟، ليكن ما تشاء، كان صفى ولدى يحلم بالنيل الممتد ما بين أسوان وحلوان، ويغنى غنوة المصنع، يحلم بسماء ملبدة بأدخنة المصانع، قال: يا أبانا لسنا بلداً صناعية، لا أمل لنا فى الصناعة، وليس أمامنا خيار آخر غير السياحة، قلت وأسفاه يا قدرى، يقول شاعركم: «**أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبـ ـتُ جوهرتين مكانهما هل ترى؟ هى أشياء لا تشترى، ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك**»، قال: يا أبانا كنت أحب صفيًا كما تحبه، ومازلت أحبه، وسوف أظل أحبه، ولكن العالم تغير، عاش صفى أحلامه الوردية، والأحلام أخيلة لا تدوم، والأيام تتداول بين الناس، قانون الحياة صعب، وأنا أعيش واقعى، لا واقع صفى. آه يا صفى، يا صديقى وولدى، راهنت على الورقة الرابحة، ولكنك خسرت، قواعد اللعبة تغيرت يا حبيبى، الأوراق الخاسرة هى التى تفوز، ماذا جرى للدنيا؟، ماذا جرى فى الدنيا؟، انقلبت الأرض رأسًا على عقب، عمَّت الفوضى، وتبدلت القيم، من الذى ربح؟ ومن الذى خسر؟، ألهذا حاربت يا صفى؟، كم كنت قاسيًا وأنت تحاورنى، كانت متعتنا الحوار، وكل حوار بيننا ينتهى بشجار، الاعتداد بالرأى يقربك لقلبى، لا يبعدك، مقاتل مثلى أنت، أنتظر زيارتك الليلية على شوق، لنختلف، الاختلاف يدفع الدماء الدافئة فى الشرايين

الخامدة، ويبعث الحياة، مرة واحدة أفحمتنى، مرة واحدة أشعرتنى بالمهانة والامتهان، حين لم أجد ما أرد به عليك، قلت محتدًا تعنفنى لو كان جيلك أدى واجبه، ولم يتقاعس لما وصل بنا الحال إلى ما صرنا إليه، لو واجهتم أعداءنا بجدية لما وقع عبء القتال على أكتافنا، فضلتم الدعة على التضحية، المتعة على الواجب ومشقة الكفاح، وها نحن نتحمل عنكم ما كان يجب عليكم أن تفعلوه، أخرسنى المنطق وقتها يا صفى، فلم أجد ما أدافع به عن نفسى وعن جيلى، الآن أجد ما أجيبك به، وما جدوى ما فعلتموه أنتم يا صفى؟، نعم، لم تعيشوا الحياة كما عشناها، لم تتمتعوا بالطيبات كما تمتعنا، أنكرتم ذواتكم التى لم نستطع التنكر لها، كل ذلك لا ننكره، حقاً قاتلتم، وقتلتم، وكتبتم بدمائكم أسطورة من أساطير البطولة، حقاً فعلتم يا صفى ما لم نفعله، ما أعظم تضحياتكم، وما أجلها، ولكن يا ولدى ما نتيجة هذا الكفاح المر، هل ترى ما تردَّينا إليه؟ ألهذا ضحيتم بأنفسكم، أحلامكم لم تتحقق، الآمال الكبيرة التى كافحتم من أجلها، وقتلتم فى سبيلها عصفت بها الرياح، وكأنها لم تراودكم فى يوم، خسرتم اللعبة بعد الفوز بها، نحن متساوون فى نهاية الأمر يا صفى، كلانا خسر الرهان، هاهى الأرض تتكلم بلغة غير لغتنا، والإخلاص للأرض أصبح عارا، هانحن نبيع مجدنا القديم بلا ثمن، نتخلى عن مقدساتنا، الوحدة التى غنيت لها تبددت بدمك المستباح، عبثت بى وبك الأقدار، آه يا صفى نحن

وأنتم لم نختلف، أحلامنا فى السمو والرفعة كانت واحدة، لم نكن كسالى كما تزعم، بدأنا الطريق الذى سرتم عليه. أشعر بالتعب يا صفى، الضباب يغزو عقلى ماذا يحدث لى؟

– أخيراً جئت يا صفى.

– أنا قدرى يا أبى..

– أسمعك جيدًا، فلماذا ترفع صوتك، اشتقت إليك يا صفى يا صديقى، انتظرتك طويلا.

– ألا ترانى يا أبى، أنا قدرى ولست صفيا..

– أراك جيدا. لا تبتئس يا صفى مما ترى، ما كان سيئًا أصبح بعدك أسوأ مما كان، لا أحد يتذكرك الآن يا صفى، زوجك ينكحها أخوك، موثقًا بزواجه صك نسيان أمرك..

– قلت لك مرارًا يا أبى إن اليتيم يحتاج أبًا، وإحياء لذكرى أخى سأكون الأب الرحيم الذى يحنو على ولده، لم لا تصدقنى..

– نعم.. نعم.. قال قدرى ما تقوله يا صفى كأنك كنت معنا، قلت فى نفسى يا عبد القادر قد خبرت الغواية، الشهوة تعمى البصيرة، وتزيغ البصر، والجسد بهيمة لا تفهم، لا مفر من قدر الجشع والشهوات. ألهذا حاربت يا صفى؟، ليطويك ويطوينى النسيان، ألهذا انتصرت لتخسر؟، قواعد اللعبة زوِّرت يا صفى، وانقلبت الأحوال رأساً على عقب، لا أتذكر من قال ذلك من الحكماء: «**انظر إذن البلاد تنقلب كما تدور عجلة صانع الفخار**

لقد وصلنا إلى ما تنبأ به الأجداد.. ينظر المرء إلى ابنه على أنه عدوه، والإنسان القوى الشكيمة يسير مغموما بسبب ما حل بالأرض من فساد»، ذكرنى يا صفى فالضعف يزحف فى أطرافى، هل هناك من قال ذلك حقاً، يهيئ لى أن هناك من قاله، لست واثقًا، أذكر أنه قال أيضا: «**انظر أصحاب الرأى والعلماء يلقون فى غياهب السجون، وصناعة الجهل أصبحت هى الصناعة الرائجة**»، ما بالى يا صفى، رأسى تترنح ثقيلة فوق أكتافى، ويخيل لى أن شاعراً كبيراً قال شيئًا ما عن الثعالب التى تجوس فى الأرض فى ثياب الواعظين، ولا يوجد ديك واحد حكيم يحذر من شرها: «**لقد حدث شىء لم يحدث قط من قبل، لقد ابتليت البلاد بعصابات القتلة**».. إن الرئيس المؤمن قتله المؤمنون ذوو الشوارب المحفوفة، حقا إن أمم الأرض تضحك من جهلنا، الشقاء يعم البلاد بأسرها، وكثبان الرمال تزحف على الوادى، وكل ما صنعناه بربط الأحزمة على البطون يصيبه الدمار، ما صنعناه معًا يا صفى ينهار، لماذا لا تكلمنى يا ولدى، لقد أعيانى الكلام، وأنت تجلس صامتاً بجوارى.

– أنا قدرى الذى بجوارك يا أبى، صفى مات..

– أجل.. أجل يا صفى أفهم، الموت أصبح لا يخيفنى الآن، ومما أخاف يا صفى، وأنا أعيش موتى، العالم حولى ليس عالمى الذى آلفه، والدنيا التى تغيرت ليست دنياى، وليس بإمكانى أن أصنع شيئا، صرت أضعف من المقاومة يا صفى،

الموت قريب إلى نفسى، أصبحت أحب الموت، تصوَّر أصبحت أتمناه يا ولدى وصديقى ورفيقى فى مشوار الحياة، خذ بيدى يا صفى، ودعنا نرحل، لقد كرهت البقاء، فلقد خسرت أنا أيضًا كل شىء، مثلى مثلك تمامًا يا صفى..

– أبى، أبى تكلم، تكلم، لا تسكت، انظر نحوى، تحرك. لا تتجمد هكذا، أمى.. أمى.. أدركينى..، وقفت متحجرة بجوارى، تحدِّق، لا ترى، ولا تفهم، مددت يدى أدركه قبل أن يسقط، منكفئًا كان على ساقيه، عدلت جلسته المعكوسة على الفراش، وضعت يدى تحت أنفه علَّنى أستشعر أنفاسه، نظرت إليه، ليست هذه الملامح الساكنة ملامحه، اختفى أبى، لم يعد له وجود، والذى أوسده لم يكن غير جسد مهجور، لم يكن غير جثة. سحبت الغطاء عليه من قدمه إلى رأسه، والتفتُّ إلى أمى أهدئ روعها:

رحمة الله واسعة – أمى أين يضع مفتاح خزينته؟.

المحتوى



شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

